الموقف الأدبي

مجلة أدبية شهرية يصدرها اتحاد الكتاب العرب
في سورية
العدد /630/ تشرين الأول /2023 /
السنة الثانية والخمسون

المدير المسؤول
رئيس اتحاد الكتاب العرب
د. محمد الحوراني

رئيس التحرير
فلك حصرية

مدير التحرير
د. أحمد علي محمد

هيئة التحرير

أ.رجاء كامل شاهين — أ.طالب هماش
د. عاطف البطرس — أ. غسان كامل ونوس
أ. محمد حسن العلي — د. ناديا خوست
أ.نهلة السوسو

أمين التحرير
ميرنا أوغلانيان

التدقيق اللغوي: أ. أيمن الحسن
الإخراج الفني: وفاء الساطي

للاشتراك في المجلة

داخل القطر للأفراد	9600 ل.س	
في الأقطار العربية للأفراد	180000 ل.س	$850
خارج الوطن العربي للأفراد	240000 ل.س	$960
الدوائر الرسمية داخل القطر	216000 ل.س	
الدوائر الرسمية في الوطن العربي	240000 ل.س	$1100
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	264000 ل.س	$1200
أعضاء اتحاد الكتاب العرب	6000 ل.س	

المراسلات باسم رئيس التحرير
اتحاد الكتاب العرب
دمشق . المزة أوتستراد /ص.ب: 3230
هاتف: 6117240 . 6117242 . 6117243 / فاكس: 6117244
البريد الإلكتروني: E-mail:mawkif@tutanota.com
موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت: www.awu.sy

فهرس العدد

	إطلالة البداية	
5	حرب تشرين روائياً	أ.د. أحمد علي محمد
	ملف فلسطين	
11	فلسطين والقدس في أدب الأديب الشاعر محمود علي السعيد	د. عبد الحميد ديوان
20	غسان كنفاني حكاية وملحمة وهوية كل فلسطيني	أ. بسام عليان
25	مغناة طائر الفينيق	د. بيسان أبو خالد
27	طين	أ. عماد موعد
29	يَكتُبني اسمك .. يكتبك اسمي	أ. خليل إبراهيم حسونة
32	دمنا زيت البلاد	أ. جواد العقاد
33	نحنُ بخير	أ. سوزان الصعبي
37	غاب نهار آخر	أ. رسلان عودة
41	الميثاق	أ. سوسن رجب
	نوافذ	
45	أسطورة من اليابان أوراشيما تارو وربة المحيط	أ . محمد الدنيا
51	آداب الكتابة والتأليف في التراث العربي	د. فاضل النجادي
57	الغزو الثقافي ومخاطر سياسة التطبيع على القضية الفلسطينية	أ . فضيل حلمي عبد الله
	بقعة ضوء	
65	صورة المثقف بمرآة المجتمع	أ . عاطف بطرس
	سحر البيان	
69	فصول من سيرة السنديان	أ . أسد تركي الخضر
71	عتّقي الصّبح	أ . هيثم علي
73	على جبهة الشّمس	أ . زاهر جميل قط
75	كُرمى للعيون الخضر	أ . جابر أبو حسين
77	شموع تشرين	أ . عصام يوسف حسن
79	داليةٌ وخمسون عنقوداً	أ . غسان لافي طعمة

	ضفاف	
83	أيها العابر... أيها الغريب	د. مأمون الجنَّان
	رجع الصدى	
95	إيحاءات صورة النخلة وجمالياتها	أ.د. إلياس خلف
101	التعبير النقدي في الجاهلية	أ.د. عبد الكريم محمد حسين
106	من أدب الاغتراب..	
	د. سليمان الصدي: تفاصيل برائحة الشوق..	أ. سعد الله بركات
	قامة سنديان	
117	الشاعر الذي ظلمه التاريخ: مصطفى البابي الحلبي	أ. محمد إبراهيم العبد الله
	في رحاب القصة	
123	الاتصال الأخير	أ. نصر محسن
127	الجندي...	أ . محمد أحمد الطاهر
132	فردوس	أ. علي المزعل
135	الصندوق	أ . توفيقة خضور
138	حكاية نصر	أ. ميرنا أوغلانيان
141	سباق نحو ضفَّةِ البحيْرةِ	أ . جمال قاسم السنومي
	وجدانيات	
147	وعاد نزار في تشرين	أ . سمر أحمد تغلبي
	إشعاعات تشرينية	
151	قصص الحرب ي مجموعة (المدفع الخامس) للقاص محمد وليد الحافظ	أ. عوض سعود عوض
	مسك الختام	
157	وماذا بعد	أ . فلك حصرية

حرب تشرين التحريرية

50عاماً

وذكرى النصر نابضة بالحياة...

حرب تشرين روائياً

أ. د. أحمد علي محمد

1 - ما كُتبه الأدباء العرب عن حرب تشرين، لم يصل برأي كثير من النقاد إلى مستوى الحدث، لأسباب كثيرة أهمها أنّ كثيراً ممن كتب عن هذه الحرب يفتقر إلى الخبرة والدراية بتقنيات الكتابة الروائية، من أجل ذلك ظنّ الكثير منهم أنّ الاعتماد على الجانب التسجيلي ينهض بأعمالهم فيغنيها عن الجوانب الفنيّة، لهذا ظلّت كثير من تلك الأعمال تدور في فلك المحلية، ولم تستطع النفاذ إلى مخاطبة القارئ العالمي.

إضافة لذلك لم يتنبه أغلبُ كُتّاب الرواية في هذا الموضوع على إبراز الجانب الإنساني للحرب، ، مما حال من دون تحول تلك الأعمال إلى نتاجات أدبية رفيعة، وكذلك أمسك كبار كتاب الرواية العربية عن المشاركة في الكتابة عن حرب تشرين أمثال نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل للآداب عام 1988م.

وثمّة سبب أسهم في جعل ذلك الأدب يدور في فلك المحلية، اتصل بالنقاد، إذ كان نقدهم للأعمال الروائية التي كتبت عن حرب تشرين نقداً تشجيعياً، ولم يمارسوا أي دور لتوجيهه، فما كتبه الصحفيون عن حرب تشرين أفضل بكثير مما كتبه الروائيون عنها.

2 - ومع ذلك فهنالك أعمال روائية قليلة حالفها النجاح، لهذا عُدت من أهمّ النتاجات التي بني على أساسها مصطلح أدب حرب تشرين، منها رواية (الرفاعي) لجمال الغيطاني، ورواية (الحرب في برّ مصر) ليوسف القعيد، ورواية (نوبة رجوع) لمحمود الورداني، ورواية (السمان يهاجر شرقاً) للسيد نجم، ورواية (رفقة السلاح)

لمبارك ربيع. فهذه الروايات كُتبت بعيد حرب تشرين بقليل، منها ما صدر في عام 1973 أي في العام نفسه الذي جرت فيه الحرب، وهنالك روايات كثيرة ألفت بعد الحرب وهي أكثر جودة مما ألف في زمن الحرب، من تلك الروايات رواية (أنشودة الأيام الآتية) لمحمد عبد الله الهادي، إذ نشرت الرواية عام 1988، أي بعد الحرب بخمسةَ عشرَ عاماً، وقد فاز فيها صاحبها بجائزة سعاد الصباح للإبداع الروائي، والمفارقة أنّ موضوع المسابقة لم يكن عن الحرب، إلا أنّ صاحبها تقدّم فيها للمسابقة بوصفها نتاجاً فنياً، ومع ذلك فازت بالجائزة، فكان ذلك من علامات جودتها، ويبدو أنّ الكاتب لم يخض تجارب روائية سابقة، يدل على ذلك اضطراب البناء الروائي الذي أقامه على التداعيات الذهنية، ثمّ إنّها متعثرة من حيث اللّغة والأسلوب، لكنّها من جهة أخرى تتميز بطاقاتها الإيحائية، والبعد الكلي عن التسجيل والتقرير، فبدأت الرواية بنقل القارئ إلى أرض المعركة، أي إلى سيناء بعد أن تمّ عبور قناة السويس من قبل الجيش المصري، ليسقطَ شهيدٌ في أثناء ذلك واسمه فتحي النجار، ثم يعلم أهله بنبأ استشهاده في الوقت الذي كانت فيه امرأته قد وضعت مولوداً، فيسميه أهله باسم أبيه فتحي، ثم تنصرف الرواية للحديث عن المجتمع المصري في أثناء الحرب، وقد أراد الكاتب أن يوحي أنّ تكافل ذلك المجتمع وتراصه في أثناء الحرب شكّل جبهة قوية توازي الجبهة التي يقاتل فيها الجنود في سيناء، وعليه فإنّ النّصر الذي حدث في تشرين لم يتحقق من دون تماسك المجتمع الداخلي، وبعد ذلك ينتقل الكاتب بتداعياته إلى مدرسة ثانوية في مصر، ليحدثَ لقاءٌ بين راوي الأحداث وشاب صغير في الخامسةَ عشرةَ من عمره، وحالما يرى الراوي الشاب يتذكر صديقاً له سمع باستشهاده في حرب تشرين واسمه فتحي النجار، فيستوقف الشاب ليقول له: أرى فيك شبهاً من صديق قديم اسمه فتحي النجار، فيخبره الشاب أنّه ابن ذلك الشهيد، وهنا يوحي الكاتب بأنّ الجيل الجديد عليه بناء مجتمع جديد يتفق مع أدبيات حرب تشرين التي لم تكن لولا الأرواح الزكية التي بذلها الآباء، وعلى الأبناء الحفاظ على ذلك النّصر واستثماره على النّحو الذي سيعيد للعرب بناء مستقبلهم واسترداد باقي أراضيهم السليبة، لا أن يكون النّصر مجرد تغنٍ بمنجز انتهى، بل تكون منهجَ عملٍ وعبوراً لانتصارات أخرى، وهذا ما

يلحظه القارئ من خلال تركيز الكاتب على العالم النفسي للشخصيات، وقد تخطت هذه الرواية جميع ما كُتب من أعمال روائية عن حرب تشرين بما انطوت عليه من إيحاءات، استهدفت إعادة بناء الإنسان العربي المعاصر على أساس الثقة بقدرته على النصر في زمن توالت فيه الانكسارات .

3 - ماذا كتب الأدباء الصهاينة عن حرب تشرين؟

هنالك أربع روايات مهمة كتبها الأدباء الصهاينة عن حرب تشرين، توشحت بالإحباط والإحساس بالخيبة، وانطوت على إشارات تتهم قيادة العدو بالتقصير، مما يشير بوضوح أن حرب تشرين كانت إنجازاً ذا شأن للعرب في العصر الحديث، ولئن كانت الروايات العربية تنطوي على الفخر بالنصر والاعتزاز بمقدرات الجيشين المصري والسوري، فإن الروايات الإسرائيلية عبرت عن الهزيمة الصادمة التي لم يتوقعها العدو الذي أشاع لدى مواطنيه أن جيشه لا يقهر، فرأى الإسرائيليون بأم أعينهم القتلى الذين سقطوا في حرب تشرين، حيث قدر المراقبون عددهم بأكثر من ستة آلاف قتيل، وهذا العدد كاف ليلحق الذعر في نفوسهم، ويحطم معنوياتهم، ويعبر عن اندحارهم، ولا سيما أن هنالك أعمالاً روائية نشرت عندهم تصور الجيشين المصري والسوري قد دخلا تل أبيب.

أولى الروايات الصهيونية التي كتبت عن حرب تشرين رواية (العاشق) للكاتب الصهيوني أبراهام بهوشواع، نشرت هذه الرواية عام 1977م، تحدث فيها الكاتب عن شخصية رجل اسمه (آدم)، كان مشغولاً بالتفتيش عن عشيق زوجته وكان اسمه (جبرائيل)، الذي اختفى فجأة خوفاً من يعثر عليه (آدم) فينتقم منه، ثم قام (جبرائيل) بعد ذلك بالالتحاق بالجيش الصهيوني، ليرى نفسه في وسط المعركة، وليس لديه أي خبرة في القتال، وكان الضباط يدركون هذا جيداً، ومع ذلك كلفوه بمهام قتالية ليتخلصوا منه ومن أمثالة، ويحافظوا هم على حياتهم في الصفوف الخلفية، وفي هذه الرواية اتهام صريح للضباط الذين حموا أنفسهم بجنود لا خبرة لديهم في القتال، وتريد الرواية أن تقول إن هذا هو سبب هزيمتهم في حرب تشرين.

الرواية الثانية التي تناولت حرب تشرين من قبل الأدباء الصهاينة رواية (حرب جميلة) للكاتب دان آموتس، وهي رواية ساخرة، تخيل فيها الكاتب أن الجيوش العربية أطبقت على تل أبيب، ثم قامت بتعذيب اليهود فيها، وقد أراد الكاتب أن يتهكم بقيادة العدو الإسرائيلي التي فشلت في صد هجوم الجيشين المصري والسوري، إذ كان بإمكانهما الوصول فعلاً إلى تل أبيب، ثم تنعى الرواية قتلى الإسرائيليين في حرب تشرين، لتحظى بتعاطف القارئ، فهؤلاء على حد تعبير الرواية لهم أسر وأولاد وأحلام في الحياة قضى عليها القادة الإسرائيليون بتهاونهم في أداء واجبهم تجاه مواطنيهم.

الرواية الثالثة بعنوان (الصحوة الكبرى) للكاتب بيني برباش، تتحدث هذه الرواية عن ضابط في الجيش الإسرائيلي استدعي للتحقيق معه بسبب تخاذله في حرب تشرين، وقد واجهته اللجنة بالأخطاء التي ارتكبها في الحرب، وكان من نتيجتها إصابة ضابط من الضباط الصهاينة دخل في غيبوبة من جراء إصابته في دماغه، ثم حكمت اللجنة ليشهد على قضيته حول ما إذا كان مذنباً أو بريئاً.

الرواية الرابعة عنوانها (ريش) للكاتب الروائي حاييم بئير، وهذه الرواية أشبه بالسيرة الذاتية للكاتب، سرد فيها أحداثاً شارك فيها عندما كان جندياً ينتشل جثث الجنود الصهاينة الذين سقطوا في حرب تشرين، ويفاجئ بأن إحدى الجثث كانت لشخص يعرفه، ولم يتخلص من شبح ذلك الشخص، وقد أفضت الرواية إلى تساؤلات جادة استغل فيها الكاتب الجانب الإنساني.

ملف فلسطين

• فلسطين والقدس في أدب الأديب الشاعر محمود علي السعيد	د. عبد الحميد ديوان
• غسان كنفاني حكاية وملحمة وهوية كل فلسطيني	أ. بسام عليان
• مغناة طائر الفينيق	د. بيسان أبو خالد
• طين	أ. عماد موعد
• يَكتُبني اسمك .. يكتبك اسمي	أ. خليل إبراهيم حسونة
• دمنا زيت البلاد	أ. جواد العقاد
• نحنُ بخير	أ. سوزان الصعبي
• غاب نهار آخر	أ. رسلان عودة
• الميثاق	أ. سوسن رجب

فلسطين والقدس
في أدب الأديب الشاعر
محمود علي السعيد

د. عبد الحميد ديوان

تحتل فلسطين والقدس المساحة الأكبر في قلوب وعقول الأدباء العرب بشكل عام وأبناء فلسطين بشكل خاص في عصرنا الحاضر

ولقد برز كثير من الشعراء الذين كرسوا شعرهم منافحين عن قضية فلسطين التي لن تكون لأحد سوى أبنائها . فهي بالنسبة لهم الجذر الذي نبتوا منه والروح التي تجعلهم يشعرون بالحياة وهم يتنفسون هواءها ويلتحفون أرضها .

ومن أبرز هؤلاء الشعراء في هذا العصر الشاعر الفلسطيني محمود علي السعيد الذي استطاع بشعره أن يحتل مكانة بارزة في تيار الثورة المناضلة في سبيل حرية وطنه واستقلاله.

لقد حقق شاعرنا بشعره مكانة بارزة امتد أثرها على مساحة الوطن العربي وكان شعره سوط نار يلهب ظهر العدو مندفعاً بكل قوة ليسقط أسطورة الزيف التي شكلها العدو الصهيوني بمساعدة أقطاب الامبريالية للقضاء على ذاكرة الشعب الفلسطيني ومحاولة محوه ليتم لهم تحقيق أحلامهم الزائفة لكن شاعرنا السعيد يرفع راية التحدي في وجه طواغيت العصر مندفعاً بكل قوته ومبرزاً صورة الكرامة العربية وصولاً إلى تحقيق الأمل المنشود في العودة إلى الأرض الحبيبة فلسطين .

وبالعودة إلى بدايات شاعرنا فقد ولد في ترشيحا القرية الفلسطينية الجميلة التي تنام في أحضان الجليل . عام 1943 وعاش فيها سنواته الأولى . ولكنه خرج منها مع أهله عام النكبة ، وابتعد عنها بجسده

ولكن لم ينسها أبداً ، فقد بقيت تسكن روحه وأحلامه ، وها هو بعد سنين طويلة يتذكرها فيرخي دموعه على صدر أحلامه ليرسم فوق حديقة عشقه لها زهوراً لا تذبل أبداً :

(عليك من الليل والوعر (أرض الدموع) تضيء خيوطاً من المطر العبقري) (يعبئ صدر الطفولة بشراً تطل العيون عليه) فيعطي صباه الطواف الأخير (قلادة عشق) (تعتق في مقلتيها الزمان (شراباً طهوراً) (عليك من الليل والوعر (أرخي الدموع قتالاً) (تقاضين فيه اصفرار المواقف)

وفي موقف آخر نجده يحضر اسم قريته ترشيحاً في ذاكرته . فهو لا يذكر اسمها مَرّةً إلا وترتسم في مخيلته جنة تطوف بها الأشجار والزهور . إنها ترشيحا عذراء الزمان وصوت الحنين في مخيلة شاعرنا :

ترشيحا

ما عدت أطيق من الشجرة

جذراً في التربة

وغصوناً في المنفى

وتنتهي به مسيرة الرحيل في مخيم النيرب المستلقي على كتف البساتين التي تزين خاصرة حلب من الشرق.

ومنذ هذه اللحظة تبدأ رحلة العذاب في حياة شاعرنا . إنه عذاب البعد عن حبيبته فلسطين .

فقد عاش حياة غربة وتشرد بعيداً عن وطنه وأرضه ، وامتلأت حياته شقاءً وحرماناً . ولكن الفتى كان مصراً على إتمام تعليمه ، فجاهد حتى أتم تعليمه الابتدائي والإعدادي في مخيم النيرب (إعدادية عكا) .

وبدءاً من هذه المرحلة انطلق الشعر بتموجاته القدسية فوق شفاه شاعرنا وراح ينشر قصائده في مجلة السنابل الحلبية وفي مجلة الثقافة الدمشقية بعد ذلك . وتابع دراسته الثانوية في حلب بين ثانويتي الكواكبي وهنانو .

ثم انتسب بعد الثانوية إلى كلية الحقوق في جامعة حلب ، وحصل على إجازة في القانون عام 1970 .

وقد تفتحت مواهبه الشعرية في المرحلة الجامعية وبدأ يملك زمام الشعر بكل تجلياته فكان الشاعر الذي يلون شعره بأجمل وأرقى الصور الشعرية المزدانة بالإيحاءات الرمزية الشفافة التي تنبئ عن موهبة شعرية متألقة.

وراح في هذه المرحلة يراسل معظم مجلات الوطن العربي مرسلاً لها قصائده وكأنها زنابق حياته تتناثر على صفحات الوطن تحكي حكاية مغترب عن وطنه قتله الحنين إليه .

و من تلك المجلات مجلة الأقلام العراقية ومجلة المعرفة والموقف الأدبي في سورية مروراً بالأديب والأدب اللبنانية

امتداداً إلى المجلات المصرية .

وامتد انتشار شعره إلى الصحف اليومية في كل الوطن العربي من مثل السفير اللبنانية والكفاح العربي وغيرها من الصحف بالإضافة إلى الصحف المحلية.

وقد نشر لشاعرنا أكثر من إحدى عشرة مجموعة شعرية منها : افتراضات مضيئة على خارطة الوطن العربي ، وشمس جديدة في ترشيحا ، وسلاماً أيتها الزرقة المسلحة بالحبر – وخلاص البساتين أن تنهض الأرض ، وفي الريح تجسدت الصيحة قنبلة ، وبالرصاص يوقع العشاق وصاياهم ، ولي من الحقل العصافير ، وافتحوا شفة المسدس ، والريح حريتي من يمنع المرور ، ونداء الجسد أنين الروح ، وأخيراً بضع قرنفلات فقط .

الشعر في حياة محمود علي السعيد

يعتبر الشعر في حياة محمود علي السعيد نسغ الحياة وعشق الروح الذي يزوده بالأمل في ليل الضياع والألم والحرمان الذي عاشه بسبب غربته القسرية عن وطنه ، والشعر أيضاً عند شاعرنا نداء الأمل وبسمة التفاؤل التي يصر على ترديدها لأنه يرى في الغد الآتي موطن الضياء . فها هو ربيع الأمل ينبثق من ردهات العتمة ليشعل ضوء الفرح في حياة شاعرنا :

عاد الربيع
إلى الأوراق ينعشها
وعاد يرعى
نجوم الليل مصباحُ
قسائم الفحم في الأسواق مقمرة
والجمر في موقد العشاق فضاح
تسقي الطلول فراشات مطرزة
همس الرحيق
ومسك الأرض فواح
أضاء روحي
بريق الحرف ثانية
وراح يلثم صدر الموج
ملاح
يممت وجهي
صوب الشرق مغتبطاً
يجتاحني الرقص
والأفراح تجتاح

والشعر عند شاعرنا (السعيد)كفاح من أجل الغد الذي سيشرق بالنصر إنه صوت نسر جريح بالغضب قائلاً : إن الثورة قائمة في وجدان المناضلين ولن تستكين أبداً ما دام هناك قهر يشق أجفان الرضى والسكينة . إن الرفض هو سلاح الثائر الذي يحمل على كتفيه عبء النضال من أجل حرية وطنه .

القهر يخالط في مجرى العينين الدمعة
يا وطني
ويفرح في أقمطة الأطفال بروقاً
تتلظى في وجه الأرض
القهر ضفاف تثقبها أمواج الرفض

فلماذا يا وطن العشق نأوا
فقراء الأرض عن الميدان
ولماذا المقتول ظلامه
وبقاع الدم شهود عيان
يجلد يا وطني

ويتوجه شاعرنا إلى البيت العربي علّه يجد فيه ما يشبع لهفته إلى جمع الكلمة ، ولكنه للأسف يجد ثورة يتيمة مطوقة بواقع الانقسام البغيض الذي يمزق البيت العربي ، وهكذا تصبح الثورة وحيدة في مواجهة طغيان العدو وضعف الأخوة . إنه يقف وحيداً في ثورته فيسيطر عليه الألم القاسي ، إلا أنه لم ييأس في معركته أبداً :

مُوجع ما يدور
في واقع الأهل والأقرباء
حطب يرفض الموقد
قمر يهجر الأفق
طلقة جلست على قارعة الصمت
تستجدي حقول النفط
أمطاراً تقلبها الطبيعة
خندق هالت عليه الشمس
شق الصدر جندي
وصفق
مهلك ما يدور في واقع
الأهل والأقرباء
صرخة جابت البلاد
فانقسم الخلق
دقت ساعة التحرير
قل :
دقت ساعة التقويم
إقرأ
أيها النفق الفلسطيني
وجه الشمس
خطوة واحدة وتأتي العافية
طلقة واحدة وتأتي المعركة

موضوعات الشعر عند محمود علي السعيد

تنوعت الموضوعات الشعرية في محراب شاعرنا ولكن الجانب القومي أخذ الحيز الأكبر في دواوينه الشعرية ، وكانت القدس وفلسطين البوصلة الحقيقية التي توجه شعره . لقد سكنت القدس شغاف قلبه وملأت جوارحه . وهو يرسم من خلال تموجاته الشعرية عروسه التي لا تغيب عن ناظريه أبداً . يقول في قصيدة (قبلتان للقدس):

بعثرت أوراق الحياة أمامي
فوجدت في صفحاتها أيامي
صوفية الخطوات أضناك النوى
نامي على صدر الحقيقة نامي
ما غير صمتك يستبيح مواجدي
فحنين مجدك للردى قسامي
المسجد الأقصى ربيع طفولتي
جدولت في حاسوبه أرقامي

أقتاب عشب الروح من أشواقه
ومن ارتعاشات الندى أحلامي

أقلام أفئدة الحروف رهينة
لسواعد البصمات من أقلامي

قمر الوجود على الغصون هنيهة
ألق وأخرى كالقبور ظلامي

يا همسة التاريخ لو أهديتني
نغماً يبرعم في الهوى أنغامي

يا قدس يا وجه السماء طهارة
أرجي إليك مع الطيوب سلامي

ونراه في قصيدة أخرى للقدس بعنوان (جمر الحنين) يرسل شواظاً من نار شعره يستصرخ رجال المقاومة أن تشعل الأرض تحت أقدام الصهاينة المغتصبين فالقدس منارة الدنيا ولا يشد الرحال إلا إليها .

لا تعبأن إذا الحرائق أشعلت
وهفا إلى شدو الرصاص رجال

واستصرخت قمم النور مآذن
وسما بأولى القبلتين بلال

وتبرجت في المقلتين جنازة
تزكو بزمزم طهرها الأجيال

من لم يذق وجع الصبابة مرةً
ويدق صدر فؤاده التجوال

يمسي صريع وشاية مجنونة
عصفت بلقمة عيشها الأحوال

القدس في نعش المساء منارة
إلا إليها لا تشد رحال

إن فلسطين هي ذاكرة (السعيد) والبوصلة التي توجه شعره ، ولذلك فإن كل الموضوعات التي طرقها في شعره كانت فلسطين تطل من نافذة هذا الشعر فالمرأة مثلاً عنده هي الحبيبة والأم والزوجة ولكنها تجتمع كلها في الوطن .

وقد اعتمد في ذلك على الصورة الرمزية للمرأة التي تجسد الحياة بكل أبعادها وما فيها ، ولذلك نجده في كثير من قصائده يستخدمها استخداماً رمزياً ، ويرسم من خلالها لوحات العشق للوطن . فالعشق دائماً هو الوطن والعناق يكون للوطن (الأم ، الزوجة ، الحبيبة) وانحناء الرأس على صدر الحبيبة (الوطن). يقول في قصيدة بعنوان ((حبيبتي والأرض)):

ولدت يا حبيبتي
في موسم الجفاف
أكلت من خميرة الولادة
رشفت ما أعاف في تمنع يخاف
علي أن أنام
والأرض يا حبيبتي تفتحت أقلام
لتكتب الوصية الأخيرة
مناي يا جوادي الأصيل
مناي أن تكون
أقوى من الجذور في تلاحم التراب

الأرض يا حبيبتي من قبل أن تمور
في ربيعها
قوافل الجراد
سمعتها تقول
روايتي قصيرة الفصول
الأرض أمهاتكم
تمصها الذئاب
لا تتركوا صدور أمهاتكم
ملاعباً تصول فوق عمرها
أصابع الخراب
فالعالم الجديد
بسحره الجديد
يحط تحت نعل أمهاتكم
الأرض كل الأرض يا حبيبتي حبيبه

ونجده في موقف شعري آخر يستطيب صرخة تنطلق من أعماقه ليشعل بها وجده وحنينه إلى الأرض التي باعد بينه وبينها مغتصب شرس:

يا موصد الأفق الوسيع ملامة
قبل المودة من عروقي تقطر
من جأر خطو الصمت في تجواله
ما عاد طيفك في الجنائن يخطر
قطعت أوصال المضارب هجرة
أولى لضوئك في الأصائل يحضر
كم تستطيب الأرض صرخة مدنفٍ
والطقس من فرط الصبابة يمطر
قطع من الآهات تصدح حُرقةً
هيهات في صدر المدى تخضوضر
شوقي إلى عبق الصباح تقرباً
يحدوه ليلٌ باللطائف مقمر
فاضت علي من التخوم مصائب
من غير أيوبٍ عليها يصبرُ
خُطي سطور الوعد من أقصى غَدٍ
كيما قراءات الحدائق تثمر

لقد سكب شاعرنا في أبياته خلاصة روحه وفيض عبقريته في رسم حدائق اللون التعبيري وهو بذلك يرسم صورة القهر الذي تملك قلبه ووجدانه بتشكيل لوني عميق وكيف لا يكون ذلك وهو صاحب الرؤية النقدية الجمالية للتشكيل اللوني في الفن التشكيلي . بحكم تعامله مع الفن التشكيلي ونقد اللوحات الجمالية .

إن شاعرنا يمسك بقوة بزمام مفردات قصائده ، وهو يطلق سراح الكلمات من فوهة تعابيره النارية لتعبر عن مضمونها بكل ألق الشاعر وجمال تصويره .

لقد استطاع شاعرنا استخدام كلماته في نسيج تعبيري واضح ، وأعطى للألوان ألقها وبهجتها .

ومع اللون نجد شاعرنا يبحر في سفائن الشعر الأصيل متمسكاً بروحه العربية وموازينه التي تجعله يعبق أصالة وشموخاً . وهو بهذا لا يبتعد عن روح الحركة الشعرية المعاصرة التي تبحث عن

الأصالة ولكنه يختار لنفسه طريقاً جديدة متميزة عن سابقتها دون أن يغوص في وحل التسطح والزيف والرياء .

ولننظر إليه وهو يستعيد ذكرى الأيام الجميلة التي عرش الحب في قلبه وترك غصة موجعة في هذا القلب ، وكيف أن اللون في قصيدته يتبارى مع اللحن الجميل العذب في القافية التي تنطلق من ربابة الصوت كأنها تعزف مقاماً من الوجد .

يقول في قصيدة (غصة الأيام لي):

تشف لروعة الذكرى إذا ما
على الجدران عرشت الخزامى
كؤوس دقائق والوجد باقٍ
يقطر شوقه
عاماً فعاما
يبيح لحرمة الأوراق صدراً
برعشة همسة الفصحى تسامى
فَقُبُّرَةٌ على أغصان فجر
ترقرق لمسة النجوى غراما
يُطَيِّرُ جمرة القبلات برداً
إلى شفةٍ
ويشبعها سلاما
وآمالٌ عراضُ الخطو ترجو
بكل تألق الماضي فِطاما
بهجرك يا عروق الشمس أضحت
قسائم روضة الدفلى ظلاما
ودون وصالها فجٌّ عميق
على مرمى بصائرنا ترامى
لماذا غصة الأيام تثرى
ونبرة صوتها تعلو إلاما

وإذا ما تأملنا نتاج الشاعر (السعيد) فإننا نجده يوسع محيط الوطن ، فهو يفتح في قلبه نافذة العشق لوطنه الثاني سورية و(حلب) بالذات لأنها أصبحت مرتع الصبا وحديقة الحلم الذي يذكره دائماً بالوطن الأول . وهذه نفثات النجوى تنطلق عبر قصائده الوجدانية التي تتربع في تاج القلب ومهرجان الروح ، لقد مزج في حبه بين الوطنين (حلب) و(ترشيحا). فحلب لم تبتعد عن ذاكرة شاعرنا أبداً ، بل كانت تسكن كل قصائده جنباً إلى جنب مع معشوقته الأبدية (ترشيحا)إنها موطنه الثاني الذي وجد فيه الدفء والراحة والحلم الذي يسعى إلى تحقيقه دائماً . فحلب كما ذكر في شعره هي جوهرة القلب وشعلة الروح . إنها بطاقة العشق التي تقتسمها مع موطنه الثاني فلسطين . وكيف لا يكون ذلك والبلدان توءمان . فهما من بلاد الشام منبع العز وموطن الكرامة .

يقول في قصيدته ((جوهرة القلب)):

بطاقة العشق أهدي منصفاً حلبا
دقت على البعد فارتد الصدى حقبا
قسائم المجد في أسواقها انتعشت
وطائر الوصل من أحداقها اقتربا

أبـــراج قلعتهـــا في رونـــق شمخـــت
كي تفرط الريح من عنقودها العنبا

نسخ الخلود يضخ الومض ذاكرة
ما مرةً طفله في حضنها اضطربا

شرق الحضارة ما مرت به أمم
إلا تـــوهج في مرآتهـــا عجبـــا

اثنان في واحد أمست على قلق
الماء والنار رغم الفرقة اصطحبا

جور المنافي يقيني كلما عصفت
بي المصائب واشتد الردى عطبا

لي موطنان فلسطين وقد بعدت
ليحضن القلب مصطاف الهوى حلبا

ولم يقتصر أدب شاعرنا على الشعر فقط بل كان متعدد المواهب فقد كان ناقداً تشكيلياً بارعاً ، وقد أغنى بمقالاته التي نشرها في معظم الصحف والمجلات السورية والعربية عالم الفن التشكيلي وهذا ما أكسبه جمالية التشكيل الجمالي في رسم الصور الشعرية في قصائده . وهو إلى جانب ذلك كان قاصاً بارعاً فقد أحدث في الفن القصصي نوعاً جديداً سماه (القصة القصيرة جداً)فكان بذلك رائداً لهذا الفن الجديد باعتراف كبار النقاد من أمثال الدكتور نعيم اليافي والدكتور سمر روحي الفيصل والناقد المعروف يوسف سامي اليوسف والاستاذ محمود فاخوري وغيرهم كثيرون .

وقد أصدر في مجال القصة القصيرة جداً مجموعات قصصية عديدة منها : الرصاصة – المدفأة – المنقل – القصبة – المحاولة – الشكل – نصف البرتقالة – بطاقة رقم 5 – إلى فراشة البحر – من قيس أرمينيا إلى ليلى فلسطين وعندما نتأمل نسيجه القصصي فإننا نرى فيه ذات المبدع الشاعر أن القصة تشكل عنده موقفاً تتبارى فيه اللغتان الشعرية والقصصية لتنتجا لنا موقفاً مبهراً يقدم لنا فيه رؤيته الوطنية بقالب فني مبدع .

وهو في عمله الأدبي القصصي يمزج كما ذكرنا بين الروح الشعرية والفن القصصي فتتلون قصصه بفكرة قصصية درامية ممزوجة بروح شعرية متألقة ، إن القصة القصيرة (جداً)في نظر أديبنا هي موقف معلن لرؤيته الوطنية في قضيته الكبرى والأساسية (فسلطين) التي لا يفتأ يذكرنا بها ويؤكد على عودتها مهما طال زمان العدوان والرجعية التي تعيق درب الكفاح الوطني . يقول في قصة (ابتسامة الشمس)في الوقت الذي كانت فيه الطائرة تحلق باتجاه المناطق تجمع ما تيسر من اسطوانات الدم ذات الزمرة الدموية O)
سالب)وجوقةٍ من حمامات السلام البيضاء تنسج حياة جديدة لمقاتل زنجي استقرت في قلبه جملة من الطلقات . كانت شرايين الدماء تتفجر من حدائق مخيم (تل الزعتر الفلسطيني)تشكل مساحة جغرافية تجسدت فيها مشتقات التقنية العصرية .

ومفارقات العلوم . الأسلحة والموت وسيارات الصليب الأحمر الدولي ، وجملة من جثث العصافير والحجارة تتبلور في درجة الصفر لتتفرج أسارير الصباح عن ابتسامتين ابتسامة الشمس وابتسامة الجثث .

ويبقى صوت الشاعر الأديب محمود علي السعيد مغرداً في عالم لا يردد حتى الصدى . ولكنه لا ييأس بل إن هذا الصمت الكئيب الذي يواجهه في رحلة شعره يعتبره تحدياً لإرادته ، فيشعل هدير الكلمات ، ويمضي منطلقاً كرصاصة الفدائي في أرض المعركة . ليصرخ في جبين الشمس أن أطلقي جناحيك وظللي بوهجك قمم الثورة الآتية .

وشاعرنا الآن يشغل رئاسة فرع حلب لاتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين ، كما يرأس اللجنة الثقافية في النادي العربي الفلسطيني ، وهو بذلك يتابع مسيرة النضال قلماً وعملاً فداء لقضيته الكبرى (فلسطين).

غسان كنفاني
حكاية وملحمة وهوية كل فلسطيني

أ. بسام عليان
كاتب فلسطيني / سورية

تبدو الكتابة عن غسان كنفاني شبيهة بإعادة صياغة حكاية أسطورية، في كل مرة تتخذ صبغة مغايرة، بدلالات لم تخطر على البال؛ ولا تخلو من اكتشاف مناضل كبير مميز، وخيال أديب وفنان مليء بالقيم الذهنية النضالية المضافة.

هناك حقيقة داخل غسان المثقف والمناضل والقائد والفنان التشكيلي تبدأ من ثقافة الاشتباك وصفحات الرواية إلى أزقة المخيمات الفلسطينية تجعلك دائماً في حوار مع مضمون أعماله النظرية؛ وكتاباته السياسية، وأفقه الأخلاقي وعمله الإبداعي وشكله الوسيم، وعمله المقاوم المليء بالوقائع والأحداث وانحيازه المبدئي للوطن الفلسطيني والأرض الفلسطينية والتراب الفلسطيني والتراث الفلسطيني.

فغسّان كان النموذج الأوّل للمثقّف المشتبك، الذي تحوّل إلى منارةٍ في الفداء لأجل الوطن، حاملاً قلمه وكلماته وقناعاته بأنّ هذا الوطن يحتاج إلى البنادق.

هناك حقيقة لا نستطيع إغفالها بخصوص هذا المثقف الكبير الواسع الاطلاع وإنجازه المعرفي الكبير وغزارة مساره الإبداعي إضافة إلى شخصيته المناضلة الصلبة وسيرته المقاومة الجميلة وهويته الوطنية الفلسطينية الراقية؛ فغسان كنفاني جعل من الأدب الفلسطيني أيقونة موسيقية عالمية يتحدث عنها العالم تحظى بالإعجاب والتقدير؛ مما جعل العدو الصهيوني يضع غسان على أعلى قمة

المطلوبين التخلص منهم وإبعادهم عن دائرة الصراع. **فغسان كنفاني** كان من أهم المنظرين للعمل الفدائي ضد العدو الصهيوني؛ وكان كلمة السر في أدب المقاومة الفلسطينية طالما كانت الثقافة المقاومة والأدب المقاوم سلاحاً بيد الشعب الفلسطيني المقهور والذي تعرضت بلاده الخضراء للغزو وتاريخه العريق للطمس.

وكانت رواياته تُعد القلعة الحصينة لحماية التراث والتاريخ الفلسطيني وثقافتها من الطمس والتحريف دفاعاً عن وجودها وحقها في الحياة بحرية وكرامة، واستنفار الجماهير وحضها على المقاومة.

وكان غسان كنفاني أحد القامات الشامخة التي آمنت بأهمية الكلمة وتحويلها إلى سلاح مقاوم، وغسان ابن جيل النكبة (1948)؛ الذي شهد على ضياع الوطن وتحوّل شعبه إلى لاجئ منكوب وحفرت هذه المرحلة عميقاً في وجدانه ولم يجد هذا المُبدع غير قلمه ليُقاتل به مُبكراً، إذ وُلدَ أدب غسان من رحم النكبة والهزائم فكان قدره أن يكون أديباً مُقاتلاً ومُشتبكاً على الدوام وكأن المرحلة قد اختارت غسان وأنجبته ليرفع لواء الأدب المقاوم الذي عاصر النكبة وواكب رحلة الضياع وشهد ولادة الثورة.

لقد استلّ غسان قلمه منذ بدايات خمسينيّات القرن العشرين وقرر أن يجذف به عكس المرحلة لأنه كان يؤمن بأهميّة الأدب المقاوم وأنّ الكلمة ستمضي وتشُق طريقها إلى أن تجد في يومٍ ما من يلتقطها ويحولها إلى سلاح، فكانت كتابات غسان منذ بدايات الخمسينيّات وحتى انطلاق الثورة أشبه برسائل البحر يكتبها ويُلقي بها على هوامش الصحف والمجلات في ظل هزيمة عربية مُدوية، فكانت هذه القصص والمقالات الصحافية تستنهض الهمم وتقاوم الهزيمة وتسبح عكس التيار وتأخذها الأمواج من مكان لآخر وتقاوم أمواج الهزائم وثقافة الانكسار في تلك المرحلة. فكان أدبه يُبشّر بالثورة ويحرّض عليها، كان أشبه بغزال يُبشّر بزلزال كما وصفه الشاعر محمود درويش، فكتب سلسلة من القصص القصيرة والمقالات وكتب روايات "ما تبقّى لكم" و"رجال في الشمس" التي ما فتئت تُحرّض بالقول "دقّوا جدران الخزان". ثم جاءت هزيمة حزيران عام 1967 ولم يلبث شعبنا أن دق جدران العالم مُعلناً ثورة عظيمة دفاعاً عن حقه في الوجود، فكتب غسان عن "الرجال والبنادق" و"أمُ سعد" و"عائد إلى حيفا"، و"برقوق نيسان" و"العاشق والأعمى والأطرش" وسلسلة من القصص القصيرة والمقالات والدراسات، حيث استطاع غسان أن يشق طريقاً وعرة عبّدها قبل 51 عاماً بدمائه.

وطوال نصف القرن الماضى كُتب الكثير عن أدب غسان ولا نزال نكتب وفي كل مرة نكتشف ما هو جديد، نكتب لأن أدبه استثنائى ويضج بالألوان ولا يحصرك في مربع واحد، ولأنه ببساطة كان مبدعاً عزّ نظيره في تلك المرحلة ولأنه مبدع سنظل نكتشف المزيد من هذا الإبداع.

هذا هو غسان الذى اعتنق قضيته؛ اختار أبطاله من البُسطاء، الذين حوّلهم في رواياته وقصصه إلى عباقرة يجترحون المعجزات ويُغذّون الخطى نحو فتح كوّة في جدار الصمت مهما كان سميكاً، كان يكتب ولم يطلب ولم يستجدِ أن نقرأه ولم يتوسّل عبارات التمجيد ولم يؤرّقه هاجس الشُهرة أو الاندثار.

كان يكتب وحسب ويؤمن أنّ الكلمة من شأنها أن تشق الدروب وتهدم القلاع والحصون، أدبٌ له لغته الخاصة من الألف إلى الياء، وكان يعرف طريقه جيداً وسط الأدخنة والضباب. كان أدب غسان يدعو المواطن الفلسطينى العادى لعدم الانحناء وأن يجابه الموت واقفاً تحت زخات الرصاص. أدبٌ ينطوى على الأُلفة والكبرياء ومُعلناً أنّ الثورات لا يُمكن لها الانتصار بغير الصدق، أدب يُعلّمنا التواضع وكيفيّة استنبات الأمل والتمرد والانتماء عميقاً للوطن والقيم الإنسانية.

لم يكن أدب غسان مبتذلاً يتوسل التكييف مع كل مرحلة أو باحثاً عن أمجاد ذاتية ومُسوّغات وتبريرات سخيفة للواقع، كان منحازاً للوطن وللمواطن الفلسطينى والعربى وللبندقية وللثورة، وانحيازه كان واضحاً كوضوح الشمس وقاطعاً كحد السيف، وهو أدب يصنع الرجال كما وصفه الكاتب العربى يوسف إدريس، وكان في قصصه لا يهاب الموت؛ فأبطال قصصه كان مصيرهم الموت، ولماذا نخشى الموت وقد أصبحنا فقراء؛ والفقراء عرضة للموت في كل حين، والأعداء يسفكون الدم الفلسطينى "دمنا" في كل حين؛ إذن لا داعي للخوف من الموت "الشهادة."

ففى كل مخيمات الفلسطينيين وفي شتى المدن والقرى ما تزال جدران البيوت مطرزة بعبارات من أدب غسان تعلّمها الأطفال والنساء والرجال وحفظوها عن ظهر قلب وترجموها في ميدان المواجهة، مثل عبارات "لا تمت قبل أن تكون نداً" و"خُلقت أكتاف الرجال لتعليق البنادق" و"دقّوا جدران الخزان" و"الإنسان قضية" وغيرها الكثير، من أدب غسان المقاوم.

إنّ ميزة أدب غسان وسرّه أنه أدب مقاوم، وحين نقول إنه مقاوم فهو يعلن انحيازه للفقراء والجماهير الثائرة، وبالتالى فهو مُوجّه لها، يستكشف أعماقها وطريقة حياتها ويُعبّر عنها، ولهذا كان أبطال قصصه ورواياته كلهم من الفقراء، ولأنه يعكس موقفاً طبقياً فهو أدب ثورى راق وخال من الابتذال والسطحية، وينشد البحث عن المعنى في النضال، لأن رحلة النضال تعبّر

عن المعنى الحقيقى في الحياة، فكان يرتقى ويحتفى باللاجئ والفقير ويرفعهم إلى مرتبة الشرف بعد أن يُسلّحه بالمفردات والمواقف المُعبّرة، ويحضّه على العمل بالقول "لك شيء في هذا العالم فقم".

غسان عاش وقتاً قصيراً (36 عاماً)؛ ولكنه كان يدرك بحسه المقاوم والمشتبك بأنه لن يعيش طويلاً؛ استفاد من كل دقيقة في حياته، كان يستبق الزمن، لم يكن يضيع الوقت سدى، كان يشتبك في مواجهات فكرية مدركاً بأن أخطاراً تحدق به؛ ليس فقط مرضه بالسكري؛ بل من عدوه الصهيوني الذي يتربص به.

كان غسان ملتصقاً بقضيّته ومنهمكاً بالكتابة دفاعاً عنها لأنه يعى أهمية أدب المقاومة في معركة التحرر الوطني.

كان غسان يستدرج القارىء ليقرأ أكثر، وليعرف أكثر، وليتثقف أكثر كمشروع وطنى تحررى عميق؛ لأنّ ثمّة كلاماً يجب أن يقوله قبل أن يمضى حيث سقط شهيداً وعمّد رحلته الأدبيّة بالدم، لأنه كان صادقاً بانتمائه وبحسمه لخيار المقاومة والنضال من أجل تحرير فلسطين كل فلسطين.

فلذلك؛ عندما أطلق غسان كنفانى في كتاباته مصطلح المقاومة على شعراء فلسطين، كان يدرك أهمية الأدب في مقاومة المحتل، وأنّ فعل المقاومة بالقلم والكلمة والكتابة له أثره أمام الرصاص والعنف والاستيطان. لقد ناقش كنفانى مبكرًا أدبيات المقاومة، وأثرها على القضية الفلسطينية وانعكاسها على الأدب العربى. وإلى رحيله ترك لنا دراسات عميقة متعلقة بهذا المضمون أهمها: "أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، 1966"، و"في الأدب الصهيونى، 1976"، و"الأدب الفلسطينى المقاوم تحت الاحتلال، 1968"، و"المقاومة ومعضلاتها، 1970"، و"ثورة 36 -39 في فلسطين 1972."

وشدّد غسان كثيراً على مصطلح المقاومة الأدبية في مواجهة الاحتلال، إيمانًا بأهمية الكلمة، وقوتها في مواجهة الغاصب المحتل، وارتباط الكلمة بالأرض.

إضافة إلى أن أدب المقاومة يعمل على تقديم صورة مجابهة للقمع الذى تقوم به السياسات اليهودية، ومقاومة مستمرة مع المحتل، وارتباط الشعر نفسه بالأرض، والهوية، والثقافة. كما أن غسان يرى أنّ «أدب المقاومة العربى في فلسطين المحتلة علامة بارزة وطليعية ومتقدمة في تراث آداب المقاومة العالمية».

ولم يتراجع غسان البتة عن مفهومه للمقاومة ففى روايته (رجال في الشمس: 1963) كتب يقول: «في رجال في الشمس دعوتُ بصوتٍ شديدِ العلوِّ إلى المقاومة والعنف». إنها رواية تقوم على المقاومة التى تهدف إلى الصراع الطويل مع الآخر المحتل، ومن خلالها يحاول غسان في كتابته الروائية أن يصنع من المقاومة بُعدًا مختلفًا

عن المقاومة المباشرة مع المحتل، إنه يصنع من القضية الرئيسة قضية أخرى قائمة على التهجير والنزوح بحثاً عن الرزق، لذا تطرح الرواية قضية أربع شخصيات مختلفة في طبائعها وسماتها الداخلية، تجرى خلف هدف واحد وهو الوصول إلى بلاد أخرى للحصول على فرصة للحياة، ومعها يقوم الراوى بعرض نفسيات كل شخصية، ومأزقها الحى، وصراعها الداخلى، وقضيتها الأولى التى تسبب بها الكيان الغاصب لأرضها. وينتقل الصراع، وتمضى الأحداث من أرض فلسطين عبر الأردن والعراق إلى الكويت شاهدة على الصحراء القاحلة، والشمس الحارقة التى يلفظ تحتها شباب واعدون أنفاسهم. إنّ الجحيم الذى يتخيّله غسان في هذه الصحراء، ليس أقل من الجحيم الذى يعيشه الإنسان في أرضه حين يعيش مقاوماً لمحتل اغتصب أرضه، ومن هنا تنطلق رؤيته في الرواية. وعليه فإن تهريب ثلاثة أشخاص داخل خزان ماء لشاحنة في صحراء قاحلة وتحت شمس ملتهبة، هو مجازفة تجعل القارئ يعود إلى الرواية في بدايتها، لماذا يرحل هؤلاء وهم يعلمون أنّ الطريق محفوفة بالمخاطر؟

ما أراده غسان هنا أن لفظ المقاومة ليس محصورًا في مواجهة الآخر والصراع معه وجهاً لوجه، فعمل على نقل الصورة إبداعيًا، وهو نوع من المقاومة، والصراع مع الآخر أيضًا، لذا فإنه بعد وفاة الثلاثة اختناقاً داخل الخزان، وقرار دفنهم من قبل الشخص الرابع، يُلحّ في نهاية الرواية على إبراز نقطة مهمة:

«لماذا لم تدقّوا جدران الخزان؟ لماذا لم تقولوا؟ لماذا لم ترفعوا صوتكم عالياً..؟؟ لماذا وفجأة بدأت الصحراء كلها تردد الصدى: لماذا لم تدقّوا جدران الخزان.....!!!!!!؟؟؟؟؟؟؟؟؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لماذا؟ لماذا؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

ويظل غسان كنفانى الأكثر جرأة في كتاباته؛ فهو يملك الفطنة والمواهب المتعددة؛ وقدرته غير العادية على الصمود والتحدى والعناد؛ وتظل أجمل جملة لتعريف الوطن في أدب غسان

"أتعرفين ما هو الوطن يا صفية؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله."

هذا هو غسان كنفانى في كل مكان؛ وتظل رصاصات الفدائى والمقاوم الفلسطينى في مخيمات الضفة وغزة ومخيمات الشتات تحيى غسان السياسى وصانع القيم وسيف فلسطين وحكايتها وأديبها الخالد؛ وهويتها الأدبية؛ في ذكرى استشهاده وتردد أفعال المناضلين جيلاً بعد جيل على جريمة الاغتيال، وسائر جرائم العدوان اليومية، حيث يقف غسان مقاتلاً اليوم على تخوم جنين ومخيمها، ولا معنى لرثاء الشهيد العظيم دون الاصطفاف في خندقه.

مغناة طائر الفينيق

(إلى الشهيد الحي أحمد ياسين)

د. بيسان أبو خالد

يسقط الشيخ فجراً
قتيل حمام السلام
ونخرج من رحم هذا الحطام
فجثمانه يولد الآن
من غيهب الموت مزدهراً كالحياة
نعود إلى سقطة الكلمات
لندرك أن البلاد التي أنجبت صمت هذه الجنازات
لا تستحق اللغات
أناديك كنعان، أخرج إلى الكون من كهفك الآن
كيما تعيد فلسطين من نهر هذا العذاب
إلى البحر حتى ربيع اليباب
هنا نقطة.. لا تعود الثواني مبرمجة للوراء
هنا برهة من ضريح الشهيد
توجه أزمنة للأمام
وتُخرج شعباً بأكمله
من شراك السلام
سيستيقظ الآن في ساحل المتوسط طير فينيق
لن يستطيع الموالون للموت
أن يخمدوا غضب الناس
إني أشيع في قروناً من الناي عن جرح نفسي
أجدل هذي الحقيقة بالموت مزمعة أن أغني
وأن أتناسى حدادي
لأبلغ قمة يأسي
لذا لا عزاء لنا لا عزاء
لا سواد يعين بلاء النساء

فلا تدفنوا مرتين الشهيد
خذوا عجلات كراسيه
للعربات التي أوقفت في المسير
خذوها لترجع فينا الطريق
خذوها مقاود أسطول هذا الحريق
وقولوا له
إن آخر ما قد أُتيح له أن يصلي
ويطلق هذا الدعاء
سيبقى طيوراً تجوب المساء
وأطفاله آمنون
ستورق أحلامنا أبداً

ملء زيتون هذا الجنون..
سبأ توعدت البلاد رجوعها
سبأ وينحرف المسار
لا عودة من جرح حاضرنا إلى الماضي
نسير إلى اجتراح هوية
سنكون يا مرساة كنعان القديمة
وسوف نعمر في دربنا كل هذي الجبال
صعوداً أخيراً
ونذكر هذا الرماد
بمولد فينيق

طين ...

أ. عماد موعد

من طين دهشته
يعجن الصبي غيمَ عريه
وحبالاً تُخبّئ صهوة ريحه...
من طين فوضاه يُرمّمُ لغةً
ويحيك أجساداً لأوانٍ تشاكس أصابعه....
***

للطين ذاكرةٌ
عشبٌ يرتشف ماء امرأة من شغفٍ
وكرز.....
في الطين تناوش العتمة انكسار
سوادها...
في الطين رغبةٌ
وفراشاتٌ
مثقلةٌ بارتجافاتها...
***

في الطين
تختبئ آثار الحرب
آثار من رحلوا ومن بقوا في هشاشة
المكان
يحرسون بيوتهم
من نار
الحطام
مضت الحرب... ومضى يقين الرؤى
مضت الحرب... وما مضت متاهة التراب
***

في الطين
نساءٌ ينتظرن
منْ يخلع الغبار عن سيرتهن
من يكشف للشمس ظلّ من عبروا بعباءة
الموج الكسير

نساءٌ
ينتظرن
من يشكّل نرجسهن
وانحناءة الثدي
لبنفسجٍ
يفرك
سرّ فتنته
***

في الطين
سوسنةٌ تروي وجعها
من أصدقاءٍ ما تركوا غير بؤس الكلام.
ظلّت وحيدةً
تسردُ
هرولة تيهها
دون أن تلقى بعثرة جمرتها....
في الطين شاعرٌ يكتبُ سيرةً لحشيشة
الوقت وبراري المنامات....
خوتْ المحطةُ من قطاراتها والأرض قد
ضاقت... ما من سفن تجوبُ اهترائها...
***

في الطين
ماءٌ أضاع نهره
ما عاد للنهر لذته
ما عاد لخريره ارتباك العاشقة من خوخ
عريها
***

في الطين
بلادٌ سلمت نفسها للغياب
تاركةً للهاوية سيرتها الأولى
***

في الطين
امرأةٌ
توقظ الصبي
من خيبته ومن ملل القتيل من قاتله
امرأةٌ من رملٍ وسراب
تمضي بأجنحة البجع
مُشرعةً
نهديها
للريح.....

يَكتُبني اسمك
يَكتُبِك اسمي
النجوم تصفق... أحياناً...

أ. خليل إبراهيم حسونة

(1)

حبي لها جنون صبابة..،
تمتد بين برتقال يافا ،
وزعترة وضيئة
تدحرج ضوءها على الوجنات
حاملاً حلمة للعيون البريئة
فهويتي نطقت..،
وغزة تسبح فجراً.. وحدها
تصفق لنجم يبتسم
فأخرج من غربتي.. ما استطعت
بحب يرفل بين جناني
كي لا أعاني..

(2)

ليوم أشواقه ساطعة
لا تجامل..
تقرأ قصة التكوين.
تشيد لطائر الرعد بهجتها
تقدم له فصل الحب..
وعطر القيامة دلَّك الظل المراوغ..
رعشة حُمّى تصفقُ للرماة.
استراحتها تدخل العصف بلا هوادة.
يحتضن موجهاً ذاك السعار
وفي قارعة النهار..
حين تُعاني
تقرع دناني..

ويرفرف أمامك ...البحر..

(1)

يشير لي الضوء أن تقدم..
هكذا هي رفرفة البحر،
أمام مخيم الشاطيء(*) حين
ينشغل عني، فتجهده الذكريات
فأخرج من داخلي
و أعانق "نيرودا" و "بوشكين"
فأعرف أن المنفى سكن..
كما تراه المحن..
مدينة غزة

(2)

ليلة مباحة نواياها..
حقائب رياحها توزع
مهج الشمس لقصائد الشعراء..
فتضبح المعاني
وتظل تعاني
تسكن الريح أوبنها..
والأمل الجريح حيث يُحّدق
لحاظ فوضى عناوينها تعرفُ حروف
"عروة بن الورد" وهموم الصعاليك
تقوم من رقدتها حاملة أحلامها
بحجم الأرض، بالطول و بالعرض..
رغم الوسن..
تنثرها على ضفاف المدن..

(3)

الأمل الجريح..
حين تصمت أشواقه
يأتي بلا أسماء..
وأنتِ تجوبين الحلم..
كي أظل معك
أعضُّ على نواجذي..
أحدقُ شوقاً
كي أعرفك
أنا المنفى.. فلا تحجبي شمس نهديك
عني، واقرئي تلك الرسائل
كي يغيب الدرن
عن عيون الوطن

(4)

أقراط الياسمين..
جناح محبة..
تطلق ما خبأتهُ الكواكب..
فأنا لي قلبك..
وأرى الأرض، حلم الأرض لشفتيك
مزهرة براعمها
تحطُّ على جسدي..
وأنت حولي مبللة،
بما لنا من نهار
أشتاق رسمك أن يُرامقني
يدقُّ مسامعي بشغف لا يزول
كرشق المزن..
رذاذها على لحاظ الفنن..

(5)

أنت صورة وطن
عند الرحيل..
تظلين واو قسم(**)
يقول نعم ..
حرير صدرك يذكرني بماء الورد..
حين اجتاحه العبق العتيق..
على أجنحة أضواء المدينة ،
إشتياق شموعها عطر الفضاء
وصُرر اللاجئين..
أخلّت بالتوازن بغزه وجنين
زمان العصف
لها أحلى شجن..
إذا ما لظى عشقها
بهواه إفتتن ..

◆مخيم الشاطئ: أحد مخيمات اللاجئين من عام 1948 ، يقع على شاطئ بحر.

◆◆المقصود: تأكيد القسم.

دمنا زيت البلاد

أ. جواد العقاد
شاعر وكاتب فلسطيني

يا أرضُ احفظي دمعَنا
يا أمنا ورثنا الزيتون،
وكبرياءَ الأجداد
احبسي في كلِّ سنبلةٍ دمعة
واغسلي بدمع الصبح وجه السماء
كي ينبتَ فينا حُبُّ الزيتون والوطن
واختبئي خلفَ تجاعيد الزمن
كي نحبَّكِ أكثر وأكثر
وحدثينا عن حزن البرتقال والتغريبة.
أنا فلاحٌ أموتُ كالحلم وأقاتل
يا وطني..
يا جرحي المُغطى بالذكرى والملح
أعود إليكَ من رمادي،
وإلى بقيةِ وجعي أفر،
وأتوبُ من انحناءاتٍ سنبلةٍ
توزعُ صمتها في صدرٍ شعبٍ يُقاتل.
يا وطني
دمي بعد السنابل يضيءُ الشمس
وطينُ البلاد
يُفجرُ ينبوعًا حيثُ نمشي
نحن أنبياء السلام
قمح الأرض المقدس يحبنا
تعتنقُ السنابلُ الحريةَ
وأغنياتُ الحصاد تبتزُّ أعداءنا،
وتجمعُ شملَ الزعتر البلدي.

نحنُ بخير

أ. سوزان الصعبي

كنتُ معهم حين أمرَنا الدُّكتور عدنان: هيَّا اعملوا وأروني ما عندكم.

يومها خرجنا من مكتبه متعثّرين بالإحباط، فهو معروف بجدّيَّته الزَّائدة، وببخله الشَّديد فيما يتعلَّق بالدَّرجات التي يمنحها للطلَّاب، ونحنُ كفريق مجتهد إلى حدٍّ ما كنَّا نخشاه، لكنَّا سرعان ما نسينا لهجته المتوعِّدة ومضينا في طريقنا إلى حديقة الجامعة نخطِّط لإنجاز مشروعنا باندفاع.

وكنتُ معهم حين وضعنا خطَّة لعملنا، بدءاً من العناوين العريضة والفرعيَّة، مروراً بالأشخاص الذين سنقابلهم. نريدُ أن نلتقي بالعديد من كبار السنِّ الذين في دواخلهم ذكريات عنيدة لم تزعزعها السُّنون، فهم يعرفون جيِّداً كيف كانت بيوت وعادات حيفا ويافا وصفد وعكَّا، وما زالوا يتحدَّثون بلهجاتهم. وعلينا أيضاً أن نلتقي بالشَّباب وبالصِّغار لنرى لون الزَّيتون في عيونهم.

ثم كنتُ معهم حين قرَّرنا أن نهدي أنفسنا فسحة من نور قبل أن نبدأ في العمل. صعدنا في الحافلة الصَّغيرة وهربنا بعيداً جداً عن الجامعة والمدينة وعن كلِّ شيء. كنَّا قد جهَّزنا بعض الأطعمة الخفيفة والمشروبات، وحين صارت المدينة خلفنا ورأينا السَّيارة تقتحم المدى، انطلقنا في الغناء والتمايل على أنغام الحريَّة المشتهاة، وكنَّا نزداد سروراً مع استنشاق رائحة الزَّعتر البريّ الذي رحَّب بنا، وهناك جلسنا، لم نعرف إن كانت الأرض تحملنا أم السَّماء!

وكنَّا معاً حين حصلت ربا على الجائزة الثانية في مسابقة الشِّعر التي تنظِّمها إدارة الكليَّة، وعلى المنصَّة وقفت مرتبكة تلقي قصيدتها وتستلم الهديَّة، عرفنا جميعاً من تقصدُ بهذه القصيدة، وهو أيضاً عرفَ نفسه، حتَّى إنَّه ذهبَ بعيداً عنَّا عندما عانقناها

مباركين، تنحَّى جانباً كي يمنح نفسه سعادة خالصة لا تشوبها كلماتٌ قد لا تفي بالغرض.

دائماً كنتُ معهم، ربا ونورا ومحمَّد وسعيد، منذ اللحظة الأولى التي وطئت فيها أقدامُنا أرضَ الجامعة ونحن نسير معاً، وفي المحاضرات نجلس معاً، اختصصنا أنفسنا بصفّين متتاليين من المقاعد كي نبقى كحلقة دائرية لا تكتمل إلا بنا جميعاً، وإن غاب أحدنا لظرف طارئ ملأنا مكانه بالحديث عنه مع قليل من النَّميمة اللطيفة الممتلئة بالحبّ.

لكن ما حدث في ذلك الأسبوع كان خارجاً عن إرادتي، لم أستطع الذّهاب إلى الجامعة بسبب وعكة صحيَّة ألَّمت بي، لم أرافقهم إلى مقصف الجامعة صباحاً كي نشرب القهوة، ولم ندخل معاً إلى قاعة المحاضرات ولم آخذ مكاني، لم يقل لي سعيد: جهِّزي نفسك يا منال كي تساعدينا بالأجوبة إن استعصت علينا. ولم أشاكسه: فليعتمد كلُّ واحد منَّا على نفسه. لم يحدث كلُّ ذلك، وسارت الحياة ليومين متتاليين في نغمها الاعتياديّ وأنا حبيسة غرفتي أرجو الله أن يعجِّل في شفائي. وفي الصَّباح الثَّالث هاتفتني ربا لتطمئنَّ عليّ، وقالت إنّهم استطاعوا تأمين كاميرا احترافيّة وسيذهبون ليلتقطوا بعض الصور في أحياء القدس العتيقة، وقلتُ بأنَّني سأنضمُّ إليهم في أقرب وقت.

كنتُ معهم في كلِّ خطوة خطوها من الجامعة إلى المكتبة إلى الطرقات والسَّاحات، وكنتُ معهم حين التقوا ببعض الرِّجال والنِّساء وتحدَّثوا معهم عن المروج والبنادق والنَّكبات، حقاً كنتُ معهم حين وقفوا عند المرأة العجوز أمّ سالم وسألوها عن عادات قريتها التي هُجِّرت منها، فظلَّت تردِّدُ بصوت مرتجف وهي تتحسَّس وجه سعيد: أحلمُ أن أرى ولدي حياً مرَّة أخرى ولدقيقة واحدة فقط. وهناك حضنتُ المرأة العجوز وواسيتُها، خاطبتُها من وراء سمَّاعة الهاتف: سترينه بإذن الله يا خالة.

وبقيتُ معهم، حين تعبوا من المشي الطَّويل جلسوا في إحدى الحدائق وتناولوا وجبة خفيفة، وكنتُ معهم حين سعلت نورا وكادت تختنق كعادتها كلّما تناولت الزَّيت والزَّعتر، ومددتُ لها يدي بكوب ماء، ثم ماءت قطَّة قربهم وهربت ربا وضحكنا منها، ومشيتُ معهم حين قاموا مجدَّداً ليعملوا بجدٍّ على أمل أن نخرج بمشروع عمليٍّ يرضي ذائقة الدكتور عدنان.

وكنتُ معهم حين كاد المساء يحلّ، ووعدتُهم بأنَّني سأنضمُّ إليهم في الغدّ، ولم أنسَ أن أعدهم باستلام آلة التصوير منهم طيلة الأيام المقبلة فأنا الأكثر مهارة بينهم في التقاط الصور، هكذا مازحتُهم وأنا أشرب الدَّواء بانتظام وأجهِّز نفسي للذهاب إليهم في الغدّ على الرّغم من رجاءات أمي لي بأن أريح نفسي عدَّة أيام أُخر.

لا أعرف ماذا حدث بعد أن أنهينا آخر مكالمة بيننا، التقيتُ بهم بالصَّوت والصُّورة عبر الهاتف قبل أن يركبوا في الحافلة، كانت السَّاعة الخامسة مساء، وقد أصرّ كلٌّ من محمَّد وسعيد على مرافقة ربا ونورا إلى أقرب مكان من الحيّ الذي تسكنان فيه، ثم أنهينا المكالمة. شعرتُ بالسَّعادة لأنَّني سأرافقهم في الغدّ، وتخيَّلتُهم كيف يمشون متحمِّسين ومتعبين وضاحكين من سعيد الذي يغضب من كلِّ شيء، تخيَّلتُهم وهم يصعدون الحافلةَ ويتحدَّثون بصوت عفويٍّ مليء بالطَّاقة والتفاؤل، ثم فتحتُ خزانة ملابسي وحضَّرتُ ثيابي التي سأرتديها في الغد.

كنتُ معهم حين أخذوا أماكنهم في الحافلة، ثم غبتُ في شؤوني.

كنتُ معهم في كلِّ مرَّة ضحكوا فيها، عند باب كلِّ حكاية وعلى مفترق كلِّ طريق. حقَّاً كنَّا معاً كلَّما بكينا وكلَّما لعبنا كالأطفال وكلَّما نجحنا وفرحنا وتنافسنا للحصول على درجات أعلى.

كنتُ معهم دائماً وكانوا معي، وهل أنسى تلك الزَّهرة التي التفَّت حولي تحيطني بالحبّ حين مات والدي؟

ولكن ماذا حدث فجأة؟ نادتني أمّي وقد رفعت صوت التلفاز فهرعتُ إليها، واحدٌ ممَّن سلبوا أرضنا اقتحم حافلة مليئة بالرُّكَّاب وأمطرهم بالرَّصاص، سيَّارات الإسعاف والصُّور المنبثَّة من موقع الحافلة تعصرُ القلب وتستدعي أوجاعه، ولكن أين أنتم يا أصدقائي؟ باللّه عليكم كفُّوا عن هذه المزحة الثقيلة، أين أنتِ يا نورا؟ انتظريني لأتأبَّط ذراعك ونتبادل الأسرار، وأنتِ يا ربا أريد أن أستشيركِ في أمر هامّ، وماذا عنكما يا سعيد ومحمَّد أين ذهبتما؟ لماذا تمتنعون جميعاً عن الرَّدِّ على هاتفي؟! لا أريد منكم الآن سوى كلمة واحدة، فليقل أحدُكم: نحن بخير، أو حتّى يمكنكم أن تغضبوا وتصيحوا: لا نملكُ الوقت الآن للحديث معكِ. ولكن قولوا أيَّ شيء يا أصدقائي، أرجوكم صدِّقوني، أنا معكم مثلما كنتُ دائماً، دعونا نشعلُ النُّور سوياً، سنلتقي غداً في المكتبة لنختار كتب الذَّاكرة من أجل مشروعنا، انتشلوا جثَّتي يا أصدقائي وسامحوني.

نحـنُ الآن في المشـفى معـاً، بـيني وبيـنكم أبـواب موصـدة وهيـاج، الممرِّضـون يمنعونني من الدخول إليكم، بيني وبينكم ألف حكاية قادمة، ألف درب لا يستقيم إلا بأشجار البلّوط.

لن تتركوني أفتِّش في الفراغ عن آثاركم، لن تسلِّموني للجنون.

أنا أطرق على أبوابكم والممرِّضون النزقون يدفعونني بعيداً. كلُّ ما أريده الآن هو أن أسمع نبضكم.

عِدُوني بأنكم لن ترحلوا.

غاب نهار آخر

أ. رسلان عودة
قاص فلسطيني من سورية

اليوم الأول

أنهى وظائفه المدرسية بعد ظهيرة ذلك اليوم الهارب من عز الصيف إلى أواخر كانون.. استأذن أمه بالخروج للعب مع أولاد المخيم، لكن أحداً ما في مكان ما، كان قد أنهى أيضاً استعداداته قبل لحظات ومن دون خوف من أحد، بدأ يسكب الرصاص المحمى على الطرقات وساحات المدارس..

لم يعد ناصر حسب عدد أيام تغيبه عن المدرسة.. ولا يستطيع أن يفهم لماذا لا توجد عتمة في ليل غزة ولا يضيء فيها النهار، لكنه فهم بسرعة البرق والرعد ليسا فقط من صنع السماء!

هذا صباح آخر مرٌ بطعم الكبريت وصحوة الموت.. لا يعرف ناصر لماذا لم تستيقظ أمه ولا يدري كيف أمضى ليلته حياً وكيف خرج إلى النهار صاحياً..

حين كانت سماء الأمس تتلعثم بنفاثات اللهب، والأبنية تبتلع شظايا الحديد، كانت أمه تحتضن أخاه وتلوب بين الغرف لا تدري أي الجدران أكثر سماكة.. يركض معها متعلقاً بثوبها الأزرق الفضفاض إلى أن باحت الريح بسر الانفجار القريب.. هوت تحتضن أخاه إلى جهة، وانقذف هو إلى الجهة الأخرى، يتنفس هواءً مصفى من تحت ستارة النافذة..

دار حولهما مجنوناً ملسوعاً بداء الرهبة، لا يعرف شيئاً غير البكاء.. يبكي.. يصرخ.. يرفع يديه إلى الله والجيران، يلطم فخذيه، يركع.. يحبو في الخراب على ركبتيه ويديه، يتقافز على رؤوس أصابعه.. يشد أمه من يدها، يمسح عن وجهها دمعة والغبار.. فجأة يتوقف عن البكاء ولا يتوقف عن لكز خاصرتها:

ماما قومي!. يمَّا لا تنامي!.

قُلتِ لنا: لا تخافوا! واللّه أنا خائف!.. ثم استند على الجدار الأخير ونام..

هدير الطائرات الذي هز أشياء المنزل وارتجفت منه نوافذ الجدران، أسقط إناء شجيرة خضراء في مكان قريب من رأس أمه، زحف إليها غطى بثوبها بعض جسدها المكشوف.. التصق بظهرها البارد، ويده تنفض التراب عن شعر أخيه، ستر عينيه من غيمة صغيرة أمطرت ألعاباً فوسفورية بيضاء على رأس السنة الجديدة، لكن رائحة الحبق الظمآن تفوح إلى أنفه رغم أنف الغبار والدخان.

كانت أم ناصر قد ودعت بعد الغارة الأولى وقبل مساءين اثنين زوجها مع سلاحه حتى الباب، وتفاهمت معه على أشياء لم يقلها، قالت لأطفالها عند سماع أي قذيفة ذكية تبحث عن أهدافها في غرف النوم والمطابخ: لا تخافوا يمَّا.. هذا رعد!.

ثم أغمضت عينيها على دمعة وفتحت نوافذ البيت لعبور عصف الانفجارات.

صدق شقيقه الأصغر ما قالته الأم.. ناصر يحب المطر، لكنه لا يصدق، ذهب إلى النافذة وأطل على بحر أسود تحت سماء بلقاء وطائرات.

كانت الغيوم الباهتة تفسح الطريق لثلاث حوامات تنزلق من التقاء البحر بالسماء، تتسلل من وهج الغروب الأحمر صوب الشطآن وفوق مراكب الصيد المهجورة.. يتعلقن في الهواء للحظات... تُشمّر الطائرة الأولى عن بطنها فتنقلب دار أم رضوان ويسقط خزان الماء الفارغ على حريق لا ينطفئ.. تشمر الثانية والثالثة.. تهمد نداءات الاستغاثة من الأحياء في الدار الأولى وتهب النيران في الدور الأخرى.. فاضت المنازل على الشوارع، ومشت على الأرصفة حبال الغسيل.

صرخت أم ناصر في وجه انفجار قلب البيت على البيت، تأوهت بنصف كلمة ونامت.

نسي ناصر ما كان سيقول لأمه، لأن ماءً دافئاً بلل بنطاله..

قذيفة ذكية أخرى فقدت عقلها، جاءت تتمختر من غير اتجاه، عبرت من فوق البيت ودخلت من محراب البيت الكبير فانصفقت على بعضها جدران اللّه، وطاحت المئذنة الصماء على سقف دكان أبي صالح.. احترقت أكياس الحليب المجفف، وذابت مصاصات السكر الأحمر..

يتوه ناصر في الغبار وقد ضاعت معالم بيته، يعدو على أربع ويسقط بين باب وباب. يزحف على وجهه ويموت قليلاً في رائحة الكبريت المحترق وأشلاء الحبق المعفر بالبارود..

يطير سرب الحمام من أمام النافذة ويغيب في الغيم الأصفر، يظن ناصر أن الليل على وشك الحلول!..

يرفع ديك أم هاشم رأسه إلى السماء بعد وميض كل انفجار ويصيح.. يظن ناصر أن الفجر قريب!..

مازال محمود يختبئ في حض أمه منذ أن سقط معها، لا يفارق ذراعها المطوية..

كان قد أنَّ.. تمتم.. وطلب الماء على طريقته: ماما انبو.. بوّا ماما؟..

اليوم الثاني

ينام ناصر في غيبوبة ثانية ويتذكر:

(كانت أمه تحضر طعام الغداء، العشاء.. والشمس غافلة في قيلولة ما قبل الحريق، خلع ثياب المدرسة وصب الماء على حبق النافذة.. لوح بيده لفريق كرة القدم في الحارة "انتظروني أنا قادم.." أكل لقمة ورمى فتافيت خبز إلى عصافير شجرة الصنوبر. قالت الأم في عصر يوم كانت تلك العصافير تتقافز على الأرض وتطير من بعضها إلى بعضها على أغصان شجرة الدار:

"الأطفال يا حبيبي، هم طيور الجنة إذا ماتوا.. الله يحميك يمَّا" كانت في حينه حاملاً بأخيه محمود..)

أحد ما هزَّ الباب الآن.. افتح الباب. لا يوجد باب يا أمي.. ولا توجد عصافير!.

يصحو عند فراغ الباب على عطش وجوع، يتابع الزحف إلى المطبخ يمر فوق كتبه منفوشة الورق، قرأ على صفحة الإملاء: أحسنت يا بطل..

كف عن الزحف ونهض واقفاً، باغته من الخلف غول الانفجار، مشط شعره من الخلف إلى الأمام وانسدل على وجهه.. هوى قطرميز آخر عن رف عنيد لا يريد السقوط.. تبعثرت حبات الزيتون المبللة بين الأواني وقشور طينة الحيطان.

ناصر لا يعرف الفرق بين الموت وبين النوم، لكنه يعرف طعم الزيتون..

عين على شفتي أخيه وعين تزحف إلى كأس ماء بين الركام..

اليوم الثالث

سماء غزة صافية كبلورة في عين قرصان، لا غيم مازن يمنح آلة التسديد ولا مطر يغسل الحريق.. ينام ناصر ولا ينام، يستيقظ ولا يصحو، يطل من فتحة في الجدار، الدبابات تعصر أشجار الزيتون والطائرات تعربد في العين العمياء.. شظايا تحرق

العيون، وطلقات تحفر في الجدران والأكباد.. يختبئ تحت النافذة وينادي بأعلى صوته على الناس والجيران.. تبتلع الانفجارات بحة صوته وتصطدم موجاتها بأشلاء دور كان بالأمس يدق أبوابها والكرة بين يديه.. يطل مرة أخرى على بيت فارس لينادية، فلا يجد البيت في مكانه ولا يسمع صوتاً لأحد.

ينادي صوت مئذنة من البعيد: يا نار كوني برداً وسلاماً على غزة..

يلقي ناصر من النافذة تفاحة محترقة وينفخ في يديه..

يتلمس عند باب المطبخ شيئاً طرياً، يقبض عليه برفق، يبحث عن الماء فلا يجد، يجمع حبات الزيتون المبللة، قال وهو يأكل حبة ويخبئ جبة: سيحب محمود طعم الزيتون كما أحبَ حليب أمي..

اليوم الأخير

استفاق ناصر على صوت بوق سيارة الإسعاف يأتي من البعيد، وعلى صوت رصاص متقطع يلاحق السيارة وولولة بوقها المبحوح..

تابع الزحف إلى أمه وأخيه خوفاً على خوف، هز كتفها من جديد، أظهر لها ما في يده: ماما هذه لكِ.. لم تجبه، حرك جذعها بكل ما أبقى العطش والجوع فيه من قوة.. وحين انقلبت الأم عن دمها المتجمد، علم ناصر الآن ما الفرق بين الموت وبين النوم..! عصر من غير قصد حبة البندورة التي أحضرها، سال الأحمر من بين أصابعه على الأحمر الداكن على صدرها، غافلته عيناه فبكى.. نادى على محمود:

- هذا الزيتون لك يا حمودة! أنا أكلت حصتي.

مسح برؤوس أصابعه المبللة بماء البندورة فم أخيه فلمعت شفتا الرضيع وبقيت عيناه جامدتين..

ضم وجه محمود البارد بكلتا يديه فلم يعترض ولم يشتكيه لأمه كما كان يفعل دائماً.. التفتت دمعته الأخيرة إلى شجرة الصنوبر تبحث عن روح أخيه في عصفور من عصافيرها!.. وقد عرف الفرق بين عصافير الجنة وبين عصافير الشجر..

وضع المسعفون الأم القتيلة وابنها الرضيع في حمالة واحدة إلى جانب الطبيب المصاب.. جلس ناصر بين السائق ومرافقه ويده مضمومة على حبات الزيتون المخضبة بدم أمهم ورمل الجدران..

الميثاق

أ. سوسن رجب

عشرونَ عاماً مرَّتْ وماجد وشاهد يزْهِرانِ صحةً وقوةً وجمالاً ووقاراً.

في أحدِ المساءاتِ سألَ (أبو ماجد) ابنهُ شاهد:" شو رأيك يابا يا شاهد نُخْطُبْلَك بنتْ عمَّكْ (أبو حسَّان)".

- يابا كيفْ بِدَّكيَّاني أخطُبْ واخوي (ماجد) بيسجون الاحتلال أسير، والقصف فوق روسنا زيِّ المطر.

- يابا يا شاهد الحياة بتمُرْ، والعُمر بيجري، واحنا شعبْ اتعلَّمنا نضحكْ والحُزُن ساكنْ بقلوبنا. اتعلَّمنا نُوقَف ودمنا مغرّقْ إيدينا، ورصاصُهمْ بيزُخْ علينا.

- بُرضايِ عليك يابا يا شاهد) إنَّكْ تفرّحني قبلِ ما تيجي ساعتي.

صمتَ (شاهدُ) عميقاً. وافقَ بشرط ألّا يتدَّخل أحدٌ في عملِهِ، مُذكِّراً والدَهُ بذلك:" إنتَ عارفْ إنّي بَغيب في شغْلي أسبوع، وبَرَوُّحْ لهينْ بس يوم واحد، فإذا عمي (أبو حسان) بيرضى .. توكَّلوا على الله".

وأسرَّها (شاهد) في نفسهِ، رِزقٌ ساَقَهُ اللّهُ إليه.. جميلة وأشياءٌ أخرى. اسمُها جميلةٌ، وهي جميلة، لطالما تمنَّاها حليلة.

قُرِأَتْ الفاتحة، وشهدَ الشهودُ على مهرِ جميلة.. ميثاقُ اللّهِ.. ألزمَهُ (أبو حسان) في عُهدَةِ (شاهد):" ومن آياتِهِ أنْ خلَقَ لكُمْ منْ أنفُسِكُمْ أزواجاً لتسكنوا إليها وجعلْنا بينكُمْ مودَّةً ورحمة..."

تَضرَّعَ (شاهدٌ) للّهِ شكراً.. ركَعَ وسجدَ ووعدْ:" هاي ابنتكَ جميلة في عُهدَتي باسم الله ورسوله.. جميلة أرضي زي فِلَسطين.

بعدَ شهر، عُقِدَتْ خيمةُ العرسِ. كلُّ شيءٍ على غيرِ العادة.. رصاصٌ لا يتوقَّف والعرسُ قائم.. توغُّلاتٌ والعُرسُ قائم.. صداماتٌ وجةٌ لوجه والعرسُ قائم.. شبابٌ يخبطونَ الأرضَ.. يغنُّون (يا ظريف الطُّول يا بو الميجانا.. وجميلة بتستناك يا شاهد)..

زغاريدُ النساء مخاريزُ في عيونِ جرذانِ الصهاينة، وجميلة في انتظارِ (شاهد) بمطلَقِ بهائها.. بحنَّائها.. وثوبُ عرسِها ليس الأبيض، بل ثوبُ جدَّتِها المعتَّق، كلُّ غُرزةٍ فيه تحكي حكاية.

ويصلُ (شاهد) برصانتِهِ .. بصمتِهِ.. بطولهِ الفارع، وكأنَّ اللّهَ صنعهُ على عينهِ. قمرانِ تحتَ زخِّ الرَّصاص، (جميلة وشاهد). طبعَ على جبينِها قِبلَةَ العهدِ. وغادرَ صوبَ شُغْلِهِ قبلَ انبلاج الفجر.

كلماتٌ بصوتٍ رخيمٍ.. واثق، خاطبتْ (شاهد):" انتَ جاهزْ يا (شاهد)، ويجيبُ (شاهد) بسكينةٍ وحزم:" لعيونَك.. على اللّهِ توكَّلنا".

عشرونَ عاماً تتداعى الآنَ أمامَ شاشةِ عينيهِ. عشرونَ عاماً ما غابتْ صورةُ أمِّهِ التي ما رآها.. (نوال) التي أنزلَها جنودُ الصهاينة على الحاجز.

عشرونَ عاماً ما غابتْ عن سمعِهِ ولْولاتُ أختهُ (زينب)، وذلُّ أبيه، وتوسُّلاتُ جدَّتهِ العجوز، وهو وأخوه في بطنِ (نوال).

عشرونَ عاماً وحشرجاتُ (نوال) تطنُّ في أذُنِ قلبِهِ، وهي تترجَّى زوجَها:" يا بو ماجد.. أنا حاسّه إنّي حموت.. بترجَّاك الولد حيموت فبطني.. طلعهْ.. برحمة ابنك الشَّهيد.. وصمتتْ مع آخرِ حرف

يومذاك لم يخذلها " أبو ماجد"، أدركَ أنّهُ لو انتظرَ سيفقدُ الجميع.. تجاوز أمَّهُ صامتاً نحوَ الجُثَّة.. كشفَ ثوبَ (نوال).. فتجلَّى بطنُها قبةَ مسجد.

اتَّسعتْ عينا شاهد، وتقدَّمَ ودمُ أمِّهِ ينفرُ تحتَ عينيه.. تقدَّمَ (شاهد)، وصراخُ أبيهِ ممزوجٌ فرحاً وانكساراً وغضباً وبكاء:" هيهُم اتنين يمَّا هيهُمْ اتنين

يتدفقُ الدَّمُ في عروقِ (شاهد)، يقتربُ الآنَ (شاهد) من الهدفِ المرصودِ، ويسطعُ أمامَهُ مجدَّداً مشهدُ أبيه عائداً إلى (غزَّة) بطفلينِ يتيمينِ وجثَّةٍ شهيدة.

يقتربُ (شاهدُ) أكثر، وغضبٌ وإيمانٌ باللّهِ يموجانِ في قلبِه.. يقتربُ.. يلتصقُ (شاهد) بالهدف، يخاطبُ (نوال) هيني وصلتْ يمَّا، يثبِّتُ صاروخَ (الياسين) على الميركافا بمسافة صفر هامِساً الحمد للّه .. يتراجعُ وباسمِ اللّه.. الياسينُ يجعلُ (الميركافا) بددا..

وشاهدْ يكبِّرُ فرحاً.. اللّه أكبر.. اللّه أكبر.. لعيونك نوال .. لعيونك جميلة.. وينكُمْ يا عربْ..!!!

نوافذ

- أسطورة من اليابان أوراشيما تارو وربة المحيط — أ . محمد الدنيا
- آداب الكتابة والتأليف في التراث العربي — د. فاضل النجادي
- الغزو الثقافي ومخاطر سياسة التطبيع على القضية الفلسطينية — أ . فضيل حلمي عبد الله

أسطورة من اليابان
أوراشيما تارو وربة المحيط

أ. محمد الدنيا

كانت في قديم الزمان قرية في بلاد "تانغو" اسمها "ميزونوي"، في هذه القرية، كان يعيش صياد سمك اسمه "أوراشيما تارو"، كان رجلاً فاضلاً، طيباً رقيق القلب، ما آذى أحداً وما تمنى يوماً أذى لأحد، كان "تارو" يعود من الصيد مساءً، وإذ يعود كل يوم بصيد وفير، بدا دائم الرضى والفرح، وذات يوم، لمح على الشاطئ صِبية صغاراً يعذبون سلحفاة صغيرة، مستمتعين بإيذائها، لكن "تارو" لا يحب إيلام الحيوانات، أشفق على السلحفاة، واقترب من الأطفال صارخاً بهم بلهجة شاءها حاسمة:

– بماذا آذتكم هذه المخلوقة البريئة حتى تعذبوها هكذا، قال، ألا تعرفون أن الآلهة تعاقب الأطفال الذين يسيئون معاملة الحيوانات؟

– تدخلْ فقط فيما يخصك أنت، رد أكبرهم عمراً بوقاحة، هذه السلحفاة ليست لأحد، نحن أحرار في قتلها إن أمتعنا ذلك، لا علاقة لك بهذا الأمر.

أدرك الصياد أن ليس لهذه القلوب القاسية عقل يردع ولا حكمة تنفع، فجاءهم في كلام عذب ورقة أسلوب:

– هيا يا أبنائي، لا تغضبوا هكذا! ليس في نيتي تأنيبكم، دعونا نتفق على شيء، ما رأيكم أن تبيعوني هذه السلحفاة؟ سأعطيكم ثلاثين ليرة، هل يرضيكم ذلك؟

ثلاثون ليرة! للأطفال! يا لها من ثروة لشراء الحلوى، قبلوا بلا تردد، وأعطاهم "تارو" قطعتي فضة صغيرتين ما إن أخذوهما حتى مضوا مسرعين إلى القرية لشراء ما يحبون، وبقي الصياد الشهم وحيداً مع السلحفاة، التي ظن أنه قد أنقذها من موت محتم، حملها بين يديه، وخاطبها قائلاً وهو يداعبها:

– أيها الحيوان المسكين! أيتها السلحفاة الصغيرة! تقول الأمثال إنك تعيشين عشرة آلاف سنة، بينما لا يعيش اللقلق إلا ألفاً منها، ماذا كان سيحل بك لولاي؟ أعتقد أن سنواتك العشرة آلاف كانت ستقل كثيراً! كانوا سيقتلونك أولئك الأغرار! هيا، سأمنحك الحرية، لكن كوني أكثر حذراً في المستقبل، وتجنبي الوقوع بعد الآن بين أيدي أطفال.

قال ذلك وأودع السلحفاة على الرمال، تركها تمضي وقفل راجعاً إلى البيت وهو يدندن، مفعماً بالرضى والسرور أنه قام بعمل طيب ونبيل، بدا له العشاء في ذلك المساء ألذ وأطيب، وسرعان ما نام هانئاً بهدوء.

في صباح اليوم التالي، استيقظ "تارو" باكراً، حمل أدواته، وسار نحو الشاطئ لصيد السمك، كعادته، ركب زورقه الصغير، ورمى شبكته، فإذا بحركة غريبة تظهر على الموج.

ـ يا سيد أوراشيما! ناداه صوت من خلفه.

تساءل الصياد، من يا ترى يمكن أن يناديه في هذا الصباح الباكر باسمه، نظر حوله، ولم ير أحداً، ظن أن الأمر ليس إلا وهماً، وتابع الصيد.

ـ يا سيد أوراشيما! عاد الصوت يناديه.

التفت "تارو" نحو مصدر الصوت مرة أخرى، وكم دهش حينما رأى سلحفاة الأمس الصغيرة قرب مركبه!

– أوه! أنت التي ناديتني إذن!

– نعم، أنا يا سيد أوراشيما، جئت لأحييك، وأشكرك على الخدمة التي أسديتها لي مساء البارحة.

– هذا لطف منك أيتها السلحفاة الصغيرة، هيا، أخبريني! بماذا يمكن أن أخدمك اليوم؟ إن كنت تدخنين، سأعيرك غليوني! لكن إياك أن تدخني.

– لا، لا، أنا لا أدخن يا سيد أوراشيما، أفضل كأساً من شراب الساكي إن تكرمت.

– الساكي؟ تشربين الساكي إذاً! هذا جميل! ما تزال لدي زجاجة صغيرة، ليس فاخراً جداً، لكن ليس سيئاً مع ذلك، ها هي!

ملأ الصياد كأساً وقدمه إلى السلحفاة، التي شربته بجرعة واحدة، وبعد لحظة، سألها:

–هل أسكب لك كأساً آخر؟

–لا، شكراً يا سيد أوراشيما، تكفيني كأس واحدة، بالمناسبة، هل سبق أن زرت قصر أوتوهيمي، ربة المحيط؟

–لا، ليس بعد.

–في نيتي أن أصطحبك إليه اليوم.

-كيف؟ تودين اصطحابي إلى هناك؟ لكن لا بد أنه بعيد جداً هذا القصر! ثم إني لا أجيد السباحة مثلك، فكيف تريدين أن أتبعك؟

- أه! ليس ضرورياً أن تعرف السباحة يا سيد أوراشيما، بل لن تحتاج إلى السباحة البتة، ستستقل ظهري، سأحملك بنفسي إلى هناك.

- أستقل ظهرك! يبدو أنك لم تفكري في الأمر يا سلحفاتي الصغيرة، وحتى لو كنتِ أكبر مما أنت الآن بعشر مرات، يستحيل على رجل مثلي امتطاء ظهرك والثبات عليه من دون مخاطر!

- أوه يا سيد أوراشيما، هل تراني صغيرة إلى هذا الحد؟ حسناً، انتظر لحظة، سترى.

أخذت السلحفاة الصغيرة تكبر، وظلت تكبر حتى أصبحت بحجم مركب الصياد، ذهل "تارو" لهذه الأعجوبة، ولم يتردد بعد ذلك، اعتلى ظهر الحيوان، وجلس بكل ارتياح.

واتجهت به السلحفاة نحو قصر "أوتوهيمي"، ربة المحيط.

وبعد بضع ساعات، لمح "تارو" من بعيد بناء ضخماً.

- ما هذا البناء؟ سأل السلحفاةَ.

- هذه بوابة القصر، أجابت.

كانا كلما اقتربا، بدت البوابة أضخم، وذات ألوان براقة.

أخيراً، وصلا، أنزلت السلحفاة الفارسَ على الرمال، التي كانت كل حبة منها لؤلؤة، رأى الصياد البوابة ذهباً خالصاً، مرصعاً بالأحجار الكريمة، كان تنينان ضخمان يتوليان حراسة المدخل، جسمهما جسم حصان، ولهما رأس ومخالب أسد، وجناحا نسر، وذيل ثعبان، يا له من مشهد رهيب! وبقي التنينان يحدقان إلى الضيف بنظرات تطفح باللطف والعذوبة.

دخلت السلحفاة وحدها إلى الرواق، وخرجت بعد قليل يواكبها كثير من الأسماك، منها الكبير، ومنها الصغير، ومن ألوان وأشكال وأنواع أهل المحيط كلها، كانت جميعها تحمل علامات الربة، اللون السماوي والشارات الفضية، وهكذا، مروا جميعاً أمام الصياد، وحيوه بتقدير بالغ، ومودة عظيمة، واحترام كبير.

لم يفهم "تارو" المقدام شيئاً من هذه المظاهر كلها، لكنه كان متأكداً من أنهم لا يريدون به أي شر أو أذى، وبقي واقفاً يتابع هذا المشهد الجميل، نزعوا عنه بزة الصيد، وألبسوه رداءً رائعاً من الحرير، واستبدلوا حذاءه بخفين مخمليين، بعدئذ، أمسك بيده فتى وسيمٌ رافقه إلى داخل القصر.

صعد الدرجات المرمرية السبع، متكئاً إلى المسند العاجي المائل، المثبت

بالحائط، حتى بلغ باباً من خشب الكاجو، فانفتح وهو يتلألأ بأحجار الزمرد، ودخل "تارو" إلى قاعة الربة، كانت قاعة فسيحة، سقفها من المرجان، مستوٍ على عشرين عموداً من البلور الصافي، وتتدلى منه مصابيح مذهبة تشع بأنوار لامعة ولطيفة، وجدرانها رخام مرصع بالياقوت الأحمر وأثمن الأحجار الكريمة.

وفي قلب هذه العجائب كلها، كانت "أوتوهيمي" ربة المحيط تجلس على عرش من الألماس، مزدان بأغلى الحلي، وحولها الحاشية كلها، بدت في غاية الحسن والجمال، أحلى من طلوع الفجر، وحينما رآها "تارو"، تأملته بأعذب الابتسام، أراد أن ينحني لها، لكن الربة لم تتح له وقتاً، نهضت عن عرشها وتقدمت نحوه، بجلال ومحبة، وأمسكت بيديه بمودة:

– أهلاً بك! على الرحب والسعة! خاطبته، علمت أنك أنقذت مساء البارحة حياة أحد رعاياي المبجلين جداً في مملكتي، وأود أن أعبر لك بأعلى صوت عن شكري وامتناني لهذا العمل الجميل، من أجل ذلك، دعوتك إلى هنا.

لم يعرف "تارو" كيف يرد، فصمت، وبإشارة من الربة، أجلسوه على وسادة مخملية، خيوطها من ذهب، وأحضروا له طاولة من العاج، عليها أطباق من الفضة المذهبة، زاخرة بكل ما لذ وطاب من الطعام، وتناول "تارو" من المآكل ما لم يذق مثلها في حياته، ولما انتهى، أخذته الربة ليرى أقسام القصر وما حواه.

راح صياد السمك يتنقل فيه مندهشاً من مفاجأة إلى أخرى، بين انبهار وآخر، إلا أن أكثر ما أذهله ونال إعجابه هو الحديقة، كانت هناك أربعة أحواض واسعة، يمثل كل منها أحد فصول السنة الأربعة.

في الشرق، حوض الربيع وعدد لا يحصى من أشجار الخوخ والكرز المزهرة، الممتدة على بساط من العشب الأخضر، وكثير من العنادل المغردة بأعذب الأصوات، وجمْع من القبرات المعششة في كل مكان.

وفي الجنوب، انبسط حوض الصيف: انتصبت فيه أشجار تفاح وكمثرى، متدلية الأغصان لكثرة ثمارها، وملأت المكان زيزان أغرقت الجو بصياحها الرتيب والحاد، الجو هنا حار، لكنه مبلل بنسمات عليلة.

حوض الغرب هو للخريف، تفترش أرضه أوراق مصفرة، وباقات أقحوان، أما حوض الشتاء، فقد امتد هناك، في الشمال، بساطاً من الثلوج المحيطة ببحيرة متجمدة...

أمضى "تارو" سبعة أيام في هذا القصر الساحر، مبهوراً بعجائبه، ومأسوراً بطيبة الربة ورأفتها وكرمها، والسعادة الغامرة

التي عاشها برعايتها، حتى أنه نسي قريته، لم يعد يفكر بوالده العجوز، وزوجته، وأطفاله، وقاربه وشباك صيده.

لكن ذات يوم، تذكرهم، وداهمه حزن وأسى، وقال في نفسه:

- كيف يمكن أن يكون أبي قد تصور هذا الغياب الطويل؟ كم قلقت زوجتي وأولادي وهم ينتظرون عودتي! ربما ظنوا أني مت، ابتلعني المحيط! ومركبي، ماذا حل به؟ وشباك صيدي؟...

وهكذا، قرر "تارو" الرحيل، حدث الربة في الأمر، حاولت أن تطيل أمد إقامته في قصرها، لكنه كان مصمما على العودة إل ديار ه وأهله، عندئذ، أخذته "أوتوهيمي" الحسناء جانباً، وأدخلته غرفتها السرية، وتناولت من خزانتها علبة صغيرة لامعة، وقدمتها له قائلة:

- بما أنك عازم على الرحيل بإصرار يا سيد أوراشيما، لن ألح عليك بالبقاء، إذن، خذ هذه العلبة، ذكرى مني وذكرى إقامتك هنا، لكن، عدني أنك لن تفتحها أبداً مهما حدث، احفظ كلامي جيداً يا سيد: يوم تفتحها، ويدفعك فضولك إلى ارتكاب هذا الذنب، ستكون إنساناً ميتاً.

قبل "تارو" الهدية بكثير من الامتنان، وأعطى وعداً بأن لا يفتح العلبة أيا كان الأمر، قبلته الربة بعد ذلك على جبينه، وواكبته حتى عتبة الباب، ثم افترقا، امتطى الصياد ظهر السلحفاة، التي أوصلته إلى الشاطئ...

عاد "تارو"، وكم تغير كل شيء في غيابه! ما عاد لتلك الأشجار التي اعتاد على رؤيتها في مدخل القرية وجود، والقرية كبرت، استقبلت بيوتاً جديدة، بيوتاً لم يكن قد رآها من قبل قط، وكم كانت دهشته عظيمة إذ لم يجد أحداً ممن يعرفهم! كانت الوجوه التي صادفها غريبة عليه كلها.

لم يفهم شيئاً مما جرى، لا ناس يعرفهم ولا أشياء اعتاد على رؤيتها، ولا عرف كيف يفكر ولا بماذا يظن، تأخر عن رؤية أبيه وزوجته وأطفاله كي يستعلم منهم لماذا كل هذا الذي يحيره الآن، توجه صوب بيته، حيث كانت المفاجأة أعظم، كان بيتَه فعلاً، ذاك الذي كان قد غادره منذ سبعة أيام، لكنه مهدم، اقترب وألقى نظرة إلى الداخل، فلم ير شيئاً مما كان قد ألفه فيه، لا والده، ولا زوجته، ولا أبناءه.

لم يشاهد سوى رجل عجوز، جالساً على حصير ومتكئاً إلى حافة موقد جمر؛ لكنه ليس والده!

كاد "تارو" أن ينهار تحت وطأة أساه؛ لكنه صمد وتشجع.

- أيها العجوز الطيب، سأل والحزن

يعتصر صدره، لم أغادر القرية إلا منذ سبعة أيام، عدت ولم أجد شيئاً على حاله، هذا منزلي، وأراك فيه، أنت الذي لا أعرفه، أين أبي العجوز، وزوجتي وأطفالي، الذين تركتهم هنا؟

- أيها الشاب، رد العجوز، من يصدق أن مجنوناً يحادثني، لا أدري عم تتحدث ولا أفهم ما تقول، من أنت بحق السماء؟ ما اسمك؟

- أنا أوراشيما تارو، صياد السمك.

- أوراشيما تارو! أوراشيما تارو! صرخ العجوز متفاجئاً جداً، إذن... أنت شبح... عائد من الموت... أنت طيف! في الحقيقة كثيراً ما سمعتهم يتحدثون عن شخص يدعى أوراشيما تارو، لكن لم يعد موجوداً في هذه الدنيا منذ زمن طويل، لقد مات أوراشيما تارو منذ سبعمئة سنة!

- سبعمئة سنة! هتف الصياد.

داخ "تارو" وترنح إذ سمع هذا الكلام، بدت كلمات العجوز كأنها شعاع ضوء يهتدي به، وفهم كل شيء! أدرك أنه قد قضى سبعمئة سنة في قصر الربة "أوتوهيمي"، سبعمئة سنة ظهرت له سبعة أيام...

داهم روحه حزن عميق، وغادر تلك القرية التي ما عاد فيها شيء يألفه ولا أحد له به صلة رحم، لم تعد قريته، فكر ملياً، وسار صوب الشاطئ الرملي، وراح يبحث لعله يلتقي بالسلحفاة، بات يريد العودة حقاً إلى القصر... لكن السلحفاة اختفت، ربما إلى الأبد.

جلس "تارو" على الرمل، وأخذ يبكي بحرقة، فجأة، وقعت عيناه على العلبة الصغيرة، علبة "أوتوهيمي" الغامضة، التي كان قد نسيها في خضم وضعه المأساوي.

- ماذا في هذه العلبة يا ترى؟ قالت لي ربة المحيط وهي تقدمها لي: يوم تفتحها، ويدفعك فضولك إلى ارتكاب هذا الذنب، ستكون إنساناً ميتاً، وهذه الربة لا تكذب أبداً... مع ذلك، من يعلم؟ ربما قالت لي ذلك كي تمتحني! ربما حوت هذه العلبة سعادتي! ثم في نهاية الأمر، ما همني أن أموت في هذا الوقت! ألم أعد وحيداً في هذا العالم، لا قربى لي، ولا أصدقاء، ولا معارف، ولا ثروة؟ نعم أفضل لي ألف مرة أن أموت من أن أعيش حياة بائسة كهذه!

هكذا فكر "تارو"، ثم فتح العلبة بعصبية قليلاً، فخرجت منها غيمة سميكة، غطته من أخمص قدميه حتى رأسه، وفجأة، ابيضّ شعره، صار كالثلج، وتجعد جبينه، وجفت أعضاؤه، وسقط مرمياً على الشاطئ.

في اليوم التالي، اكتشف الصيادون على الشاطئ رجلاً عاش سبعمئة سنة...

آداب الكتابة والتأليف في التراث العربي

د. فاضل النجادي
باحث وأديب عراقي

إنّ الفكر التربوي العربي الإسلامي ينظر إلى الكتاب باحترام وإجلال منطلقاً مما يحتويه الكتاب من علم، ومكانة الكتاب من مكانة العلم وفضله، لذا حث الفكر التربوي العربي على الكتابة والتأليف، بما يخدم الناس ويخفف عنهم ويحفظ دينهم ولم يكتب عن رسول الله (ص)، إلا القرآن، في صدر الإسلام، لأنه نهى عن ذلك، بقوله (ص): "لا تكتبوا عنّي، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج"(1).

وقد اتكل الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعون على الحفظ، وكان الحفظ ممدوحاً من كل الناس ومع موت الصحابة والتابعين، ضاع بموتهم كثيرٌ من علومهم، وهذا ما نبّه إليه النبي (ص) بقوله: "إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمٌ، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا".(2).

وقد تنبه الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى أهمية الحديث النبوي الشريف وضرورة الحفاظ عليه عن طريق كتابته من منابعه الأساسية، لكي لا يضيع ويضل الناس، فكتب إلى أبي بكر بن حزم، قائلاً: (انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء)(3).

ومنذ ذلك التأريخ بدأ أهل العلم بتدوين أحاديث رسول الله (ص) بشروط وضوابط كثيرة الغرض منها تنقية الحديث النبوي مما ليس فيه، لأن الحديث هو سنة رسول الله (ص)، والمبين لمجمل القرآن وتفسير مشكله، وتحقيق ما كان محتملاً، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه(4).

وقد ظهرت الحاجة إلى التأليف والتصنيف في علوم الدين وغيرها وأكد علماء السلف على أن من أهم واجبات

العالم هو كتابة علومه خشية ضياع علمه بموته، وكي تستفيد منها الأجيال القادمة، وفي ذلك قال أحد الحكماء: (لولا ما عقدته الكتب من تجارب الأولين، لانحل مع النسيان عقود الآخرين)(5)؛ وقال آخر: (إن هذه الآداب نوافر تند عن عقل الأذهان، فاجعلوا الكتب عنها حماة والأقلام لها رعاة)(6).

وقد وضع بعض العلماء آداباً في التعامل مع الكتاب عند تأليفه وأثناء استعارته أو قراءته وبنوا على الكتاب آمالاً جسيمة باعتباره حافظاً لتراث الأمة وناقلاً لعلومها من جيلٍ إلى جيل.

فأكد الجاحظ إن التأليف مهم للعالم، لأنه يؤثر بالمتعلم، فيقول: (متى كان الأديب بارعاً وكانت مواريثه كتباً بارعة وآداباً جامعة، كان الأجدر بالولد أن يرى التعلم حظاً، وأجدر أن يسرع التعليم إليه)(7).

وحث الخطيب البغدادي العلماء على كتابة العلم، وبين فوائده، ويعد الكتاب أعز ما يملكه العالِم، وعليه أن يعتني به، لأنه يحفظ العلوم وهو علم ينتفع به ويبقى بعد صاحبه فينال به ثواباً كثيراً(8). ووضع شروطاً للتأليف، منها:

1 – أهلية المؤلف، وتخصّصه، وتمكنه وإلمامه بما يحيط بما يكتب.

2 – العلم النافع الذي يفيد المجتمع والناس وفيما لا ضرر منه.

3 – أن يكون الكتاب الذي يؤلفه لم يسبقه إليه أحد، أي: أن يكون الكتاب أصيلاً جديداً في فنه ويحتاجه الناس ويضيف جديداً وليس موضوعاً مكرراً.

4 – أن يخرج الكتاب على أكمل وجه من حيث علميته ووضوح أسلوبه وأفكاره وسهل فهمه، ووضوح عبارته، بعيداً عن التطويل الممل، والإيجاز المخل.

5 – مراجعة الكتاب وإعادة النظر فيه أكثر من مرة ويهذبه ويشذبه مما يشينه قبل أن يجعل الناس تطلع عليه.

6 – أن يرتبه ويبوبه وفق المنهج العلمي المتبع.

أما فوائد الكتاب عنده، هي:

أ ـ يثبت الخط ويذكي القلب من خلال ما يورده من معلومات.

ب ـ يشحذ الطبع ويزيد الهمة والنشاط للتأليف.

ث ـ يكسب جميل الذكر وجزيل الأمر لما ينشره بين الناس.

ج ـ يخلد مؤلفه إلى آخر الدهر(9).

ويرى الماوردي أنّ تقصير علماء السلف يكمن في عدم توثيق علومهم بكتب يمكن الرجوع إليها وإن العلوم والآداب متغيرة ومختلفة من بلد إلى بلدٍ، ولا يمكن استيعابها وحصرها، وعلى العالم أن يذكر ما يستطيع ذكره، ويوثق ما استحسنه بالعرف من عادات عصره(10).

ويعدّ ابن الجوزي أن الكتاب الذي يصنفه العالم هو ولده المخلد الذي لا يموت ويبقى أثره بعد مماته(11). ويرى ابن الجوزي أن للتصنيف والتأليف فوائد وفضائل كثيرة لا يدانيها التدريس، وقدم نصائح للعلماء عن العمر الذي يمكن يؤلف فيه وكيف يؤلف، بقوله: رأيت من الرأي القويم إن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحصون ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم، فينبغي للعالم أن يقبل على التصانيف، إن وفق للتصنيف المفيد، فإنه ليس كل من صنف صنّف، وليس المقصود جمع شيء كيفما كان، وإنما هي أسرار يُطلعها الله عز وجل من شاء من عباده، ويوفقه لكشفها، فيجمع ما فرق أو يرتب ما شتت، أو يشرح ما أهمل، هذا هو التصنيف المفيد.

ويؤكد اغتنام التصنيف في وسط العمر، لأن أوائل العمر زمن الطلب وآخره كلاً من الحواس، وربما خان الفهم العقل متى قدر عمره، وإنما يكون التقدير على العادات الغالبة، لا أنه يعلم الغيب فيكون زمان الطلب والحفظ والتشاغل إلى الأربعين، ثم يبتدئ بعد الأربعين بالتصنيف والتعليم، هذا إذا كان قد بلغ من الجمع والحفظ، وأعين على تحصيل المطالب.

فإذا قلت المصادر عنده من الكتب، أو كان في أول عمره ضعيف الطلب، فلم ينل ما يريده في هذا الأوان، أخر التصنيف إلى تمام خمسين سنة، ثم يبدأ بعد الخمسين في التصنيف والتعليم إلى رأس الستين، ثم يزيد فيما بعد الستين في التعليم ويُسمع الحديث والعلم ويعلل التصانيف، إلى رأس السبعين، فإذا جاوز السبعين جعل الغالب عليه ذكر الآخرة، والتهيؤ للرحيل فيوفر نفسه على نفسه إلا في تعليم يحتسبه، أو تصنيف يفتقر إليه، فذلك أشرف العدد للآخرة(12).

ويرى ابن الأزرق أن الكتابة ذات فوائد، منها: إنها تحفظ على الإنسان حاجته، وحقيقتها على النسيان، ومبلغة خمائر النفوس إلى البعيد الغائب.(13)

وأناط ابن جماعة مهمة التأليف والتصنيف بالعلماء وأعد ذلك من الآداب المهمة اللازمة لهم؛ لأنهم الأقدر والأجدر للقيام بمهمة الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، ولكن بشروط منها:

أ ـ أن يصنف في المذاهب، لتوضيح الخلاف فيما بينها مع توخي الدقة والإنصاف عندما يناقش وجهات النظر المختلفة في قضية ما.

ب ـ أن يتحلى بفضيلة الإلمام والكمال أي كمال الأهلية والعلم والتخصص.

ت ـ أن يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم التي يؤلف فيها.

ث ـ الرجوع إلى المصادر والمراجع التي سبق وأن عالجت الموضوع الذي يكتب فيه ومطالعتها، والتفتيش والتنقيب فيها عن المواضيع التي يكتب فيها(14).

ويرى أن هناك آداباً وأخلاقيات لا بد من مراعاتها عند التعامل مع الكتاب، وقد أفرد باباً لهذه الآداب(15).

ويؤكد السمعاني على العالم أن يكون خطه حسناً جميلاً عند الكتابة(16).

ويرى ابن خلدون أن الكتابة والوراقة هي من أشرف المهن، فيقول: (الكتابة وما تبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان خاصته ومقيدة لها عن النسيان، ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب، ومخلدة نتائج الأفكار، والعلوم في الصحف ورافعة رتبة الموجود للمعالي)(17). وقد وضع سبعة شروط مهمة لكي يكون التأليف نافعاً ومفيداً، مع ذكر فوائد الكتابة(18).

وعدّ العاملي الكتابة والتصنيف في عصره فرض عين على المؤهلين علمياً، وذكر من فوائد الكتاب هو وسيلة من وسائل الحفظ، ومن فضائل التأليف أن ثوابها الجنة، وأفرد باباً في أدب الكتابة والكتب(19).

وأكد العلموي على وضوح الخط وإخراج الكتاب بصورة جيدة مبيناً أثر ذلك في نفوس القراء والمتعلمين، وقد خصص فصلاً في آداب التصنيف وشروطه وقد ذكرت بعض الآداب عند الانتهاء من التأليف والتصنيف وجرت العادة بعقد مجلس، أو عمل وليمة عند ختم كتاب معتبر يؤلّفونه أو يحفظونه.

إن الفكر التربوي عند العرب والمسلمين جعل التأليف والتصنيف بمقام روح الأمة وقلبها النابض، وحضارتها المتصلة، وذاكرتها الحية والشاهد على عمق هذه الحضارة وشمولها، ودليلهم الكتاب الذي حفظ لهم فكرهم وإبداعهم وإنجازاتهم الفكرية والعلمية، وبالعلم والكتابة شيدوا حضارة سطعت أنوارها على الغرب والشرق، وأصبحوا بفضل العلم سادة الدنيا وقادتها.

وإذا أردنا أن ننشط الذاكرة بما تم إنجازه في مجال التأليف والتصنيف، نطلع على أهم الكتب التي حفظت لنا أسماء العلماء ومؤلفاتهم، منها: معجم المؤلفين لياقوت الحموي، وكشف الظنون لحاجي خليفة، والإعلام للزُركلي وغيرهم.

وعندما وضع العلماء العرب والمسلمين القلم وأهملوا الكتاب، تخلفوا عن ركب الحضارة الإنسانية تخلفاً لم يشهده العرب والمسلمين منذ نهضتهم الأولى؛ واليوم يتطلعون إلى الغرب ومفكريه ليتصدقوا عليهم بفتات العلوم التي تفرقهم أكثر مما توحدهم، وتمسخ تاريخهم بدلاً من أن تنصفهم.

ويبقى التأليف حافظاً لتراث الأمة ومنجزاتها الثقافية والحضارية عبر العصور وهو فضيلة يفوز بدركها ذوو الهمم العالية والمقدرة الفائقة والفضل الكبير والخبرة الرصينة والعطاء الثري.

المصادر والمراجع:

(1) صحيح مسلم: (7510).

(2) صحيح البخاري: (100).

(3) المصدر نفسه، ص 22.

(4) الماوردي؛ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي البصري (ت 450 هـ ـ 1058م). آداب الدنيا والدين، المكتبة الثقافية. بيروت، 1986م، ص 140.

(5) المصدر نفسه، ص 66.

(6) المصدر نفسه، ص 66.

(7) الجاحظ: الحيوان طبع السلسلة المختارة من التراث العربي، بيروت، ج 11، ص 364.

(8) الخطيب البغدادي؛ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463هـ ـ 1070م). تقيد العلم. تحقيق: يوسف العش. منشورات دار إحياء السنة النبوية، ط3. بيروت، (1395هـ ـ 1975م) ص 138.

(9) المصدر نفسه، ص 117.

(10) الماوردي. أدب الدنيا والدين، مصدر سابق، ص 336.

(11) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ ـ 1200م). صيد الخاطر. تحقيق: ناجي الطنطاوي. دار الفكر، ط4، دمشق، 1987م، ص 51.

(12) ابن الجوزي. صيد الخاطر. مصدر سابق، ص 207، 208.

(13) ابن الأزرق، أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد (ت 896هـ ـ 1490م): بدائع السلك في طبائع الملك: تحقيق: الدكتور علي سامي النشار، وآخرون، دار الحرية للطباعة والنشر، الجزء الأول. بغداد، 1397هـ ـ 1977م: ج1، ص 234.

(14) ابن جماعة، بدر الدين (ت 773هـ ـ 1381م) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالِم والمتعلم. تحقيق: الدكتور عبد الأمير شمس الدين. دار اقرأ. بيروت، 1983م، ص 48.

(15) المصدر نفسه، ص 147.

(16) الماوردي؛ أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي البصري (ت 450هـ ـ 1058م). آداب الدنيا والدين. المكتبة الثقافية. بيروت، 1986م، ص 140، ص 251.

(17) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ ـ 1406م). المقدمة. دار مكتبة الحياة. بيروت، (ب ـ ت)، ص 405.

(18) المصدر نفسه، ص 497.

(19) العاملي، زين الدين بن أحمد (ت 964هـ ـ 1556م). منية المريد في أدب المفيد والمستفيد. تحقيق: علي جهاد الحساني. مطبعة الديواني. بغداد، 1994م، ص 152، 165.

(20) العلموي، عبد الباسط بن موسى بن محمد (981هـ ـ 1573م). المعيد في أدب المفيد والمستفيد. المكتبة العربية دمشق، 1930م، ص 150.

الغزو الثقافي ومخاطر سياسة التطبيع على القضية الفلسطينية...

أ. فضيل حلمي عبد الله

يهدف الغزو الثقافي إلى احتلال العقل والفكر بخلاف الغزو العسكري الذي يهدف إلى احتلال الأرض والوطن، والغزو الثقافي أكثر خطورة من نظيره العسكري، إذ ييسر الغزو الثقافي عملية الإخضاع الداخلي، مما يبدو وكأنه إلقاء ستارة سوداء على الواقع أو تجميل له، فيُقبل الإخضاع على أنه شيء آخر من طبائع الأمور كنتيجة فعل تغييب الأدلة التي يمارسها الغزو الثقافي، لالتباسه بمفاهيم كثيرة تتصل بعمليات التكوين الذاتي مثل النمو والاستقلالية والأصالة والوعي.

ولا يزال أمر الغزو الثقافي وأدواته محيراً لدى الكثيرين، إذ لا ترى فئة من المثقفين أنه عزو، فتختار له أسماء أخرى، وتهوّن فئة أخرى شأنه على أن الحديث عنه وعن مخاطره وهم كبير، وتروج له جهة ثالثة كوسيلة لتبادل الثقافات باعتبار ذلك تلاقحاً معرفياً حضارياً يعزز التواصل بين الحضارات الإنسانية ولا يجدون في هذا الغزو تأثيرات سلبية على ثقافة وحضارة الوطن والمواطنة.

إن الغزو الثقافي بمفهومه الإيديولوجي يستهدف احتلال الفكر والانتماء كما احتل الأرض وطمس الهوية، فهو غزو خاص خارجي جاء من أجل الهيمنة السياسية والهيمنة الاقتصادية لدوام نهب مقدرات الشعوب، غير أن الغزو الثقافي هو في حقيقته غزو من الداخل بدون جيوش غازية. لهذا فهو الأكثر خطورة لأنه يضمن بعد ذلك في حالات الضعف الذاتي دوام الهيمنة على الإدارة والإمكانات القومية برمتها.

لقد تطور الاستعمار والاحتلال كثيراً عن شكله التقليدي العسكري المباشر إلى شكله الاقتصادي سواء لتأمين المصادر أم

الطاقة أم الثروات الطبيعية أم البحث عن الأسواق، إلى الاستعمار الثقافي الذي يختلف حول تسميته والذي لا يحتاج إلى أسلحة تقليدية لأنه مزود بسلاحه الفتاك الداخلي. أي التنميط الثقافي من خلال آلية صناعة العقل، وهذا هو ما تخطط له الولايات المتحدة الأميركية مستخدمة في سبيل ذلك الكيان الصهيوني والأنظمة الرجعية العربية كأداة منفذة. لقد تكثف الغزو الثقافي في المنطقة بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001م، وأعلنت كونداليزا رايس أن ذاك مستشارة الأمن القومي، إن أميركا ستخرج بسياسة جديدة إلى المنطقة سياسة الإصلاح الديمقراطي في المنطقة العربية ضمن سلسلة المشاريع التي تهدف إلى إعادة تأهيل العالمين العربي والإسلامي، و (تربيتهما على القيم الديمقراطية وتحسين صورة أمريكا لدى عمموم العرب والمسلمين). كما أنشأت وزارة الحرب الأميركية والبنتاغون جهاز ((تزيف الوعي)) لدى العرب المسلمين، ويأتي هذا تأكيداً على حرص الإدارة الأميركية على تحرير العالم العربي والإسلامي من الأنظمة الدكتاتورية، ونشر الديمقراطية والحرية فيهما. إن أهداف سياسة المشاريع التي أطلقتها الولايات المتحدة من خلال تعزيز الديمقراطية، والإصلاح الاقتصادي في المنطقة هو في جوهره الغزو الثقافي، وقد استخدمت واشنطن منظمة الأمم المتحدة لتشريع حملاتها وخطواتها في العالم، بعد أن هيمنت عليها وعلى غيرها من المؤسسات الدولية كمجلس الأمن وصندوق النقد الدولي والمحكمة الدولية والوكالة الدولية للطاقة الذرية والجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي ومنظمة المؤتمر الإسلامي ومنظمة حقوق الإنسان وغيرها....إن مصداقية الولايات المتحدة الأميركية بشأن قضية الديمقراطية في المنطقة العربية ومشروع الشرق الأوسط، تجسد ضمن حالة من التناقض بين المبادئ والمصالح، لأن الإدارات الأمريكية المتعاقبة سواء كانت جمهورية أو ديمقراطية ضحت بالمبادىء الديمقراطية من أجل المصالح أو وظفت المبادئ في خدمة المصالح، كما أن الولايات المتحدة الأميركية مارست ضغوطاً على العديد من الدول العربية والغير عربية، لاتخاذ إجراءات غير ديمقراطية ضد أحزاب مشروعة داخلها، وضد حرية الإعلام فيها بذريعة محاربة الإرهاب.

وإذا كان الاقتصاد هو السلاح الذي أطاح بأسوار دول وجعلها مفتوحة وخاضعة للقطب الواحد إلا أن سلاح الإعلام والثقافة الذي يقوم بدور التمهيد واستكمال عملية السيطرة، بإضفاء الشرعية المطلوبة عليها وإحلال القناعة بها وإحداث تغييرات فكرية وثقافية تجعل شعوب المنطقة ودولها راضية بالإدارة الجديدة، وفي سبيل كسب حربها الفكرية في منطقة الشرق الأوسط، لقد أنشأت أميركا محطات فضائية

وإذاعية عديدة تبث برامجها باللغة العربية، الهدف منها تحسين صورتها وترويج سياستها لدى شعوب المنطقة، كما ساعدت الكيان الصهيوني على إطلاق قمر اصطناعي لبث البرامج التلفزيونية عبر القناة (الإسرائيلية) الموجهة للعالم العربي، وتصاعدت المطالب الأميركية من الدول العربية ومنها الاعتراف بدولة الاحتلال الصهيوني وبأن القدس هي العاصمة لها، والعمل على بدء التطبيع مع الكيان الصهيوني، وتغير المناهج المدرسية وشطب اي نص يتحدث في العداء لـ(إسرائيل). كما طالب بفتح سفارات (إسرائيلية) وبعثات دبلوماسية في بلادها، كما طالبت بإقامة منظمات المجتمع المدني من أجل التآمر على شعوبها، وفي سبيل السيطرة على العقل العربي وتنفيذ سياسة الغزو الثقافي استخدمت الإستراتيجية الأميركية والغربية عموماً ركائز مهمة للانطلاق خلال العقود الثلاثة الماضية يمكن أن نذكرها:

- **مؤسسة فورد**، وهي تعمل في المنطقة منذ أوائل الخمسينات من القرن الماضي وتقدم المنح الدراسية للباحثين العرب، إضافة إلى تمويل بعض المشاريع الثقافية والاجتماعية.

- **مؤسسة رائد**، التي برز نشاطها الواسع خلال السبعينات من القرن الماضي وارتبطت بمجال الدراسات الفلسطينية. مجلس أبحاث العلوم الاجتماعية ولجنة الشرق الأوسط، التي انبثقت عن المجلس الذي يعمل في المنطقة منذ فترة ليست بالقصيرة.

- **وكالة التنمية الأميركية**، ويذكر أنها رصدت مبالغ طائلة للبحوث المشتركة بين مصر والكيان الصهيوني في مجال البحوث الزراعية. مؤسسة فريدريش إيبرت الألمانية، وهي وثيقة الصلة ببعض مراكز البحث العلمي في العالم العربي.

- **المبادرة من أجل السلام والتعاون في الشرق الأوسط**، وتضم هذه المؤسسة عدداً كبيراً من رجال السياسة وسفراء أميركيين سابقين وهدفها إعداد ثقافة مشتركة بين الأنظمة العربية والكيان الصهيوني، من شأنها أن تسهل طريق السياسة الشائعة إلى التطبيع من خلال معاهد ومراكز الأبحاث الأميركية والصهيونية، وبعض نظيراتها في الدول العربية من أجل اختراق البحث العلمي في شتى الميادين. المركز الأكاديمي في القاهرة المعروف بدوره التجسسي، وقد ركز أبحاثه على معرفة الأصول العرقية للمجتمع المصري، ودراسة تأثير عملية السلام على العقل العربي، فالتفسير الصحيح لهذه الأطروحات هو أنها تحقق التعليمات وأوامر واشنطن الآن على أنها حرب على الفكر المناهض لسياستها العدوانية اتجاه شعوب المنطقة، ويمكن إيجاز واختصار الآليات التي تهدف الولايات

المتحدة الأميركية لاستخدامها في الحرب لأفكارها المستمرة التي تقودها في الشرق الأوسط وفق التالي:

- **الترويج للديمقراطية وحقوق الإنسان والإصلاحات السياسية** من خلال اتهام معظم الدول العربية والإسلامية بالشمولية، والمقصود بها، الجمهورية العربية السورية الجماهرية الليبية، الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وبحجة عدم احترام حقوق الإنسان، الأمر الذي يؤدي إلى خلق حالة من الارتباك والفوضى لدى هذه الدول مع شعوبها.

- **تغيير خريطة المنطقة** من خلال الاحتلال العسكري أو شنّ حرب استباقية ضد بعض الدول في منطقة الشرق الأوسط مثلما حصل مع الجمهورية العربية السورية، حيث اتخذت الحرب العدوانية على سورية أشكالاً قذرة على عدة صعد ومستويات، فكانت حرباً معقدة ومركبة إعلامياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً، حرباً استعملت فيها كل المحرمات والأكاذيب والتضليل والافتراءات وفق سياسة منهجية مدروسة ظهرت في البداية وفق أشكال الحصار السياسي والدبلوماسي ثم الاقتصادي (المقاطعة والحصار) ثم تطورت إلى باقي الأحداث فتنة طائفية مذهبية، اجتماعية، وعرقية قومية، واقتصادية طبقية، ومن ثم اتخذت أشكالاً عسكرية إرهابية حين بدات العمليات الإرهابية ضد الأبرياء من المدنيين، فضلاً عن الاعتداء المنظم على بعض العسكرين وقوات الأمن، وعلى بعض المرافق العامة، ولا سيما ما يتعلق بالمحاكم الجنائية.

وما حصل أيضاً مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية حين بدأ التسخين العسكري في الخليج ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية حيث سعى العدو الصهيوني وآل سعود لدفع الإدارة الأميركية ارتكاب عدوان بحق الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ومحاولة إعداد المسرح واستحضار الاستعدادات اللازمة لحض الإدارة الأميركية على هذا العدوان وتوريطها لمصلحة الكيان الصهيوني فيما تدفع الثمن أميركا ودول الخليج، ويحصد العدو الصهيوني نتائج هذه الحرب العدوانية دون دفع أي ثمن يذكر، كما حصل في العدوان على الشعب العراقي عام 2003م. وعلى الشعب اليمني من قتل وحصار ومجازر وتجويع وقصف أماكن مأهولة بالسكان المدنيين العزل بأدوات الرجعية العربية.

كما تأتي في سياق خلق بيئة الحرب والعدوان، وبالإملاء من تيار ولوبيات ومجمعات أميركية وفي المقدمة اللوبي الصهيوني، ومجمع الصناعات الحربية، وكل هذا يأتي بحجة امتلاكها لأسلحة دمار شامل أو الدفاع عن حياة شعوبها المقموعة والمظلومة من قبل أنظمتها، وكلها ابتزازات سياسية ومبررات للتدخل

في شؤون هذه الدول التي تعيش بحالة نهوض وتطور حضاري وثقافي واستقرار.

وفي أعقاب ذلك، تحولت المنطقة العربية إلى هجوم ثقافي إعلامي كاسح، يستهدف التشكيك بالهوية الحضارية الثقافية للأمة العربية والإسلامية، ويركز على تشويه المضمون التحرري للمقاومة والفكر المقاوم المناهض للعدو الصهيوني والتبعية الأميركية، وهذا الهجوم ليس بجديد بالمعنى الزماني والمكاني والتاريخي للكلمة، ولكن الأعم والأشمل والأخطر على الإطلاق، وهو يطال الأمة دفعة واحدة في كل مواقعها، وأخطر ما فيه أنه استهدف ثقافة الأمة وتراثها الفكري والحضاري لتدمير ما يحويه من قيم وإيمان والحق والعدالة الإنسانية، وإعادة شحنه بقيم مشوهة تقطع أوصال هذه الأمة وتحولها إلى شراذم ذات شخصية تابعة متلقية قلقة مرتجة، كما هو حاصل الآن في الواقع العربي، إنه غزو منظم ومبرمج بامتياز.

ولم تعد أساليب الغزو الثقافي الأميركي الصهيوني للعالم العربي والإسلامي سرّية، فمشاهد هذا الغزو مرئية يومياً في الدول العربية، وهناك ترويج هائل عبر وسائل الإعلام الدولية لتسويق هذا الغزو وتلميع المشاركين فيه المنضمين إلى معسكره من دول الخليج وتشويه الرافضين الممانعين لسياسة الخضوع والانبطاح والتخاذل. وتنقسم موجة الغزو الثقافي إلى قسمين: الأول: وتستهدف النخبة والمثقفين. الثاني: يستهدف الثقافة الشعبية. وهما وان افترقا أو تمايزا فإنهما يجتمعان في الهدف والتوجه، ويلعب الإعلام في كلا الحالتين دوراً مهماً.

فهذا النوع من الغزو لا يأتي على ظهر دبابة، بل يفاجئ المواطن العربي داخل بيته ومكتبه وسيارته عبر المذياع أو جهاز التلفزيون أو الصحافة.

- وعبر الفضائيات والإذاعات والاعتماد على الصورة بدلاً عن الموضوع كخطوة لتغير مفاهيم شعوب المنطقة، خاصة فئة الشباب.
- فرض مناهج مدرسية جديدة في دول المنطقة تعمل على إذابة الهوية الثقافية العربية والإسلامية والتراث التاريخي والديني.
- دعم لا محدود لدولة الاحتلال الصهيوني والوقوف إلى جانبها ضد الدول العربية، والإسلامية بالأخص سورية والجمهورية الإسلامية الإيرانية ومحور المقاومة، كنوع من الضغط لإحداث تغيرات سياسية واقتصادية وثقافية.
- كما تعمل أميركا والكيان الصهيوني من خلال الغزو الثقافي لفرض سياسة التطبيع، والترويج لمفهوم الشرق أوسطية الذي تتكامل فيه جهود النظام العربي الرجعي

والفكر التضليلي التكفيري من أجل إقامة منطقة مشتركة للتبادل التجاري بين الكيان الصهيوني، ودول التطبيع.

- تقليل الاعتماد على نفط المنطقة والبحث عن مصادر أخرى، بعرض تضييق الخناق الاقتصادي على الجمهورية العربية السورية، والجمهورية الإسلامية الإيرانية، والعمل على إفقار المنطقة من مواردها الطبيعية.
- تشجيع ودعم الأقليات في بعض الدول العربية مثل مصر والسودان والمغرب ولبنان وبعض الدول الأخرى، بهدف إشعال فتنة عرقية، قد تؤدي في نهاية المطاف إلى تمزيق هذه الدول وتحويلها إلى كيانات صغيرة ومتحاربة. وفي النهاية، نظراً لأنه الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأميركية يريد أن يفرض على الدول العربية المعركة الثقافية والفكرية بحسب أساليبه وبدون مقدمات، فإن على الفلسطينيين الارتقاء بأنفسهم إلى مستوى التحدي، هذه تحديات حقيقية أمام الأمن القومي العربي المستباح الذي يعاني من فجوات كثيرة أهمها أصحاب القرار العرب الذين فشلوا في بناء الإرادة العربية الجماعية التي تحفظ لهم كرامتهم المهدورة، والمفكرون العرب الذين لا ينطلقون بأفكارهم إلى المستقبل لتطويع التحديات المتجددة لصالحنا، بل يعتنقون أفكاراً في الغالب قديمة حطمتها الزلازل.

بقعة ضوء

صورة المثقف بمرآة المجتمع

أ. عاطف بطرس

صورة المثقف بمرآة المجتمع

أ. عاطف بطرس

عندما ينغمس مداد الكاتب في شؤون الحياة العامة، لابد له من مواجهة المشاكل المقلقة التى تهم عامة الناس، وبالطبع تعنيه شخصياً بصفته جزءاً فاعلاً في إطار كل منفعل في أغلب الأحيان.

كلما ازداد منسوب مواجهة الحقائق المؤلمة ازداد عدد الخصوم، فالعلاقة بينهما طردية، وهنا إما أن يلجأ الكاتب إلى الصمت مؤثراً السلامة بكل أشكالها، معلناً انسحابه حرصاً على راحته النفسية والجسدية، وإما أن يدخل المواجهة وعندئذٍ لا مهرب من الخوض في غمار لا تحمد عقباها حتى من أقرب المتفهمين للضرورات والمحظورات.

المسألة تتجاوز حدود الشخصنة والعلاقات الودية والصداقات الدائمة أو الطارئة، إنها قضية الثقافة، وبالتالى صورة المثقف في مرآة المجتمع. فأى تشوه في الصورة بفعل ممارسات خاطئة لهذا المثقف أو ذاك تنعكس سلباً على فئة المثقفين بشكل عام، وبالتالى تضعف من دورهم الريادى، وتأثيرهم في مجتمعاتهم، لأن مواقفهم وآراءهم، تشكل مصدر هداية للناس، إذا لم نقل هم نماذج يحتذى بها ويقتدى بهم.

القدوة والنموذج والمثال، ليس بالكلام وبالمنابر والكتابة في هذه الصحيفة أو تلك المجلة، على أهمية ذلك ثقافياً واجتماعياً، تتناقص الأهمية عندما لا تتوافق أقوالنا مع أفعالنا، والطامة الكبرى، والخطر الداهم، عندما تتعارض هذه الأقوال كلياً مع الأفعال.

وكى لا يساء فهمنا، ونتهم بالوعظية وبيع النصائح، لا نبرئ أنفسنا من بعض هذه الظواهر التى يتصف بها المثقفون، من مبالغة في الأنوية، ومحاباة أصحاب الشأن، والتستّر على أخطاء المقربين، والجرأة في مواجهة من لا نحب، دون تقديم مبررات مقنعة لذلك.

عندما تتفشى هذه الأعراض وتتجاوز حدود الظواهر الشخصية، تشكل خطراً ليس على المثقف نفسه، وإنما على المثقفين جميعاً، وبالتالي على الثقافة، في مرحلة عصيبة نمر بها جميعاً ثقافة ومثقفين.

فبدلاً من تجميع القوى ورص الصفوف والالتفاف حول الأولويات الوطنية، وفي مقدمتها تمتين اللحمة الاجتماعية، وتعزيز الثقافة الوطنية بتقديم قوة المثل، والترفع عن ضيق الأفق، والانغماس في قضايا ثانوية قد تكون على درجة كبيرة من الأهمية، لكن تأجيلها لا يعني نسيانها، وسيأتي وقت آخر لمعالجتها والمساهمة في إيجاد الحلول لها.

من سيستمع إليك إذا خسرت ثقة الناس بك؟ ومن سيعترف بك إذا لم ترتق بسلوكك إلى النموذج الإيجابي المتفهم لما يمكن فعله الآن، وما يمكن أن يؤجل إلى زمن آخر وظروف بديلة؟

لا تدعوا صورة المثقف تتآكل، بعد أن أصابها الاهتزاز، تعالوا معاً أفراداً ومؤسسات للعمل في ورشة تضع برنامجاً يحدد مهمات المرحلة، وفي مقدمتها محاربة الفكر الظلامى التكفيرى الإقصائى الإلغائى، بالفعل وليس بالقول، بقوة المثال وليس بالتعالى، بالتواضع المعرفي والبعد عن الشخصنة، وبالعمل الجاد على تمتين المؤسسات التي ننتمي إليها، لأن دورنا وفاعليتنا من قوة هذه المؤسسات ومن مكانتها.

فلنعمل على إشاعة العقلية المؤسساتية، بديلاً من عقلية التفرد وسيادة المزاجية في إطلاق الأحكام واتخاذ المواقف.

إلى مزيد من التعقل والحكمة وعدم الانفعال، ففي ذلك خدمة للمثقفين والثقافة والوطن.

يسعد الهيئة في مجلة الموقف الأدبي أن تخص

زاويتي (سحر البيان) و(في رحاب القصة) بنماذج

القصائد والقصص الست الفائزة في جوائز الاتحاد

بمناسبة الذكرى الخمسين لحرب تشرين التحريرية

سحر البيان

• فصول من سيرة السنديان	أ . أسد تركي الخضر
• عتّقي الصّبح	أ . هيثم علي
• على جبهة الشّمس	أ . زاهر جميل قط
• كُرمى للعيون الخضر	أ . جابر أبو حسين
• شموع تشرين	أ . عصام يوسف حسن
• داليةٌ وخمسون عنقوداً	أ . غسان لافي طعمة

فصولٌ منْ سيرةِ السنديان

أ. أسد تركي الخضر

أيَّ الــرؤى الآنَ يــا تشــرينُ أقــترحُ ... وأيَّ بــابٍ مــن التأويــلِ أفتــتحُ ؟
أيَّ القصــائدِ في قلــبي أعتّقُهــا ... فيصـطلي جمرَهـا حـبري وينقـدحُ ؟
أيَّ الكنايـاتِ يسـتهدي بهـا قلمـي ... وأيَّ معنــىً لذيــذِ الوقــعِ أجــترحُ ؟
ومــنْ سيشــرحُ للأنهــارِ فكرتَهــا ... سوى الذينَ ندىً من جرحهمْ نضحوا؟
المجــدُ للــدّمِ إذ يسْــمو بــهِ وطــنٌ ... يحفّــهُ مَــددُ الــرحمنِ والمُــددُ
المجـدُ للحارسـينَ الفجـرَ مـن ظُلَـمٍ ... والكـونُ ليـلٌ أضـاؤوهُ بمـا شـرحوا
تكتّفـوا حـدَّ أنْ شَـفّتْ ملامحهـمْ ... كـأنْ بغـيرِ سـنا الأزهـارِ مـا لُمحـوا
تقمّصـوا الزهـرَ أثوابـاً فحـينَ مضـوا ... نـدىً مـن الفجـرِ مـنْ قمصـانهمْ نَفَحـوا
تكلّلــوا بالنهــاراتِ الــتي اعتقــدوا ... ومــنْ مســامِ الليــالي أنجمــاً رَشــحوا
تحـدّروا مـنْ جهـات الأرض عاصـفةً ... مــنَ الــبروقِ ومــن لألأئهــا ســنحوا
كــأنّهمْ مــن سمــاءٍ حُــرّةٍ وُلــدوا ... ومــنْ ثـرى وطـنٍ بالأخضـرِ اتّشـحوا
لـولا سـنا دمهـمْ في الأرضِ مـا انبثقـتْ ... شمــسٌ ولا حبــقٌ في الضــوءِ ينفــتحُ
جُنــدٌ يربّــونَ في أحــداقهمْ وطنــاً ... وفي ملامحهــمْ مــنْ عشــقهِ وضــحُ

ولْـدُ الميـادينِ لُسْـنُ الأبجـدياتِ إذا ... سـنّتْ بنـادقُهم مجـداً بـهِ طفحـوا

المؤمنـونَ بمـا أوْحـتْ لهـم ذِمـمٌ ... والراسـخونَ إذا مـا غيرهـمْ جَنحـوا

هـلْ للـبلادِ صـباحٌ غـيرَ مـا ابتكـروا ... أو للمدادِ سوى المعنى الذي اقترحوا ؟

هَبْهَـا دهـتْ مـن خطـوبٍ أمّـةً محـنٌ ... فسـوفَ تعقبُهـا مـن نسْـلها المـنحُ

لـو شـابَ يومـاً بيـاضَ اليـاسمينِ دُجـىً ... لانثـالَ في جرحـهِ واسّـاقطَ الـبلحُ

يـا خمـرةَ الضـوءِ يـا تشـرينُ في لغـتي ... زدنـي مـن الضـوءِ خمـراً قلبيَ القـدحُ

عتّقي الصّبح

أ. هيثم علي

عتّقي الصّبحَ . . . لنْ يطولَ السّوادُ وأعيدي إليَّ ما لا يعادُ
واتركيني ومركبي وشراعي أمخرُ الضّوءَ . . . إنّني السّندبادُ
قادماً . . . تحملُ النّوارسُ وجدي وتغنّي مواجعي أروادُ
ليس قلبي أقلَّ من قلبِ " كعبٍ " ليلةَ البينِ . . . حين " بانت سعادُ "

***

لا تقولي لقد ذهبتَ بعيداً ليس بيني وبين قلبي ابتعادُ
واتركيني أفلسفُ الحبّ وحدي كيفما شئتُ . . . لا كما لي يرادُ
أنتِ وجهٌ من السّماوات آتٍ كلَّ يومٍ جمالهُ يزدادُ
لستِ أنثى . . . وإنّما كلماتٌ منزلاتٌ . . . وما لهنّ نفادُ
أنتِ زيتونةٌ تضيءُ . . . ولو لم تَمْسَسِ النّارُ زيتَها . . . أو تكادُ
يشربُ الغيمُ من نداكِ ويهمي عبَراتٍ ... فيستفيقُ الجمادُ
أوّلُ الخمر أن تكوني بلادي بعدَ عينيكِ لن تكونَ البلادُ

***

مريمٌ أنتِ يا دمشقُ .. وعانتْ أختُ هارونَ ، واعتراها السّهادُ
"فكلي واشربي وقَرّي" وهِزّي نخلةَ اللّهِ كيْ يدومَ الودادُ
كلُّ مَنْ أسرجوا النجومَ خيولاً لهمُ فيكِ يا دمشقُ امتدادُ

إنَّ تشـــرينَ مـــا يـــزالُ قريبـــاً ... في جناحيـــهِ وحـــدةٌ واتّحـــادُ
ضـــربَ النّصـــرُ موعـــداً أمويـــاً ... ليكـــونَ المخـــاضُ والمـــيلادُ
أيقـــظَ العُـــرْبَ فاســـتفاقتْ بـــلادٌ ... وتـــدلّتْ مـــن عيـــدها الأعيـــادُ
وتلاقَـــتْ دماؤنـــا في تـــلالٍ ... أنســـنتها جبالنـــا والوَهـــادُ
وثبـــةٌ لـــيسَ وجههـــا بغريـــبٍ ... هـــامَ فيهـــا الآبـــاءُ والأجـــدادُ
أرضـكِ اليـاسمينْ ... كَـمْ مـن صـهيلٍ ... عـانقَ الشّـمسَ ... تشـتهيهِ الجيـادُ
حاصـرتكِ الجهـاتُ مـن كـلِّ صـوبٍ ... وتلاقـــتْ في أرضـــكِ الأضـــدادُ
فهنـــا القمـــحُ يشـــتهيْ خبـــزَ أمّـــي ... وهنـــا ... عســـجداً يصـــيرُ الرّمـــادُ
حـــدّثيني ... فأنـــتِ أوّلُ غيـــثٍ ... في كتـــابٍ يخطّـــهُ " آدادُ "
وهنـــا الجلّنـــارُ أصـــبحَ ثوبـــاً ... ســـرمدياً ولونُـــهُ استشـــهادُ
فمتـــى نلتقـــي علـــى عـــذبِ نبـــعٍ ... يشـــتهيهِ الصّـــدّارُ والـــورّادُ؟
ومتـــى ترجـــعُ الطّيـــورُ لـــدوحٍ ... فيـــهِ يرمـــي ســـلاحَهُ الصّـــيّادُ؟
ويعـــمُّ الوئـــامُ شـــرقاً وغربـــاً ... وتعـــودُ الأفـــراحُ والأعيـــادُ

على جبهة الشّمس

زاهر جميل قط

رَبيبُـكِ الـنَّجمُ، كـم أسـرى ليقتربـا ... مِـن أُفـقِ شمسِـكِ شـعَّ الـنَّجمُ والتهبـا

مـا شـعَّ إلاَّ ونهـرُ الحـبِّ مُنـدفقٌ ... يسقي الزَّمانَ ويروي الحرفَ والكتبا

خُذيـهِ طفـلاً وربّيـهِ علـى مَهَـلٍ ... كـي يُبصرَ النّورَ في عينيكِ والذّهبَا

ورتِّلـي آيـةَ الأمجـادِ إنَّ لـهُ ... قلبـاً شـغوفاً بمـا خبَّـأتِ مُختضِـبا

وعلِّميـهِ اكتمـالَ الضَّـوءِ وانسـربي ... في مُقلتَيْـهِ يمامـاً هـامَ أو سُـحُبا

وأمطـري أرضَـنا القفـراءَ مِـن شَـمَمٍ ... تَلقَـيْ لـديْنا غـديرَ المجـدِ مُنسـكبا

الحُسـنُ يُغـري وكـم صـانت جلالتَـهُ ... سُمرُ الزُّنودِ، وكم أغوى وكم سلبا

كـم مـرَّ حولـكِ مجنـونُ الرِّيـاح دُجًـى ... فـابيضَّ شَـعرُ الرِّيـاحِ الهُـوجِ وانقلبـا

كـم مـرَّ غـازٍ غَـوِيٌّ يشـتهيكِ وكـم ... كسـرْتِه فـانثنى يَرْبَـدُّ مُنتحبـا

تـدفَّقَ الجُـودُ مِـن يَنبـوعِ غابرِهـا ... كمـا تـدفّقَ نهـرٌ في الرُّبـا عَـذُبا

فاضـتْ علـى مُقفِـرِ الأيَّـامِ نبعتُهـا ... فاخضـرَّ في يـابسِ الأيَّـام مـا احتطبـا

مـا مـرَّتِ السُّـحُبُ الحسـناءُ ذاتَ هـوًى ... إلاَّ أكبَّـتْ علـى أسمائِهـا طرَبـا

فيحـاءُ حسـناءُ أُمُّ المجـدِ شـامخةٌ ... علـى ذُراهـا تربَّـى المجـدُ وانتسـبا

منـــارةٌ تهتـــدي في الليـــلِ أشـــرعةٌ إلى ضِـياها ، ومَـن هـامُوا بهـا حِقبـا
تُلـــينُ للقاصـــدِ المحـــزونِ جانبَهـــا وللأعـــادي تُجلِّـــي جانبـــاً صـــلُبا
ذُلَّ الطُّغـــاةُ علـــى أعتـــابِ قلعتِهـــا كـــأنَّ قلعتَهـــا للحاقـــدينَ ظُبـــا
فمـــن تتلمـــذ فيهـــا طـــاب معشـــرُهُ ومـن ثوى في رُباهـا الخُضـرِ مـا انغلبـا
أمٌّ ودودٌ ولـــــودٌ أنجبـــــتْ قِيَمـــــاً عزَّتْ كِراماً فصانُوا الأصلَ والحَسَبَا
هنـــا خيـــولُ صـــلاحِ الـــدّين شـــامخةٌ تَخـيطُ للبغْـيِ ثـوبَ العـارِ مُـذ وثبـا
خفُّـــوا إليهـــا جيوشـــاً جـــرَّهمْ أرَبٌ وغادروهـــا فُلـــولاً قـــد نسُـــوا الأرَبـــا
هنـــا تخـــطُّ يـــدُ الأمجـــادِ حاضـــرَها علـــى رُخـــامِ المعـــالي والزَّمـــانُ صَـبا

كُرمى للعيونِ الخضرِ

جابر أبو حسين

سـلاماً يـا وغـى قلـبي سـلاما ... ويـا معنـىً علـى الأبـوابِ نامَـا
مـداراتِ النّـدى عطـرَ السّـجايا ... كغيـثٍ في ذُرا البُشـرى ترامـى
حملـتُم جـورَ نازلَـةٍ عَقـوقٍ ... فكنـتم خـيرَ مَـنْ يرعـى الـذّماما
سـلوا شـيخَ الجبـالِ فقـدْ تربَّـى ... علـى أيـديكُمُ حتَّـى تسـامى
غلَلْـتُم في هشـيمِ البغـيِ نـاراً ... وطـرْتُم في جحـافلِهم زؤامـا
فطـبْ يـا مـوطني جـبلاً وسـهلاً ... وسُـدْ يـا سـيّدي شمسـاً وشـاما
فكرمـى للعيـونِ الخضـرِ سـالَتْ ... علـى جنباتِـك الـدُّنيا مُـداما
وكرمـى للكرامـةِ والمعـالي ... وبيـتٍ واحـدٍ يُبنـى وئامـا
تسـابقَ للعُـلا أهلـوكَ شـيخاً ... وطفـلاً يتبـعُ البطـلَ الهمامـا
وخنسـاواتِ تـاريخٍ جديـدٍ ... ترصَّـعَ بالمـدامعِ مُسـتهاما
فأضـحى كـوثراً نبـعُ الضَّـحايا ... وأضـحَتْ مقلـةُ الـدُّنيا غمامـا
فكـمْ تشـرينَ يـا وطـني اسـتطارَتْ ... علـى هضـباتِكَ الهَيْجـا ضِـراما
وكـمْ تشـرينَ يـا وطـني اسـتفاقَتْ ... علـى زنـديكَ أزهـارُ الخُزامـى
وكـمْ تشـرينَ يـا وطـني انحنَـتْ عِنـ ... ـدَ بـابِ كفاحِـكَ الـدُّنيا احترامـا
سـتبقى شـعلةُ الشـهداءِ فينـا ... وتبقـى مهجـةُ الـدُّنيا شـآما

تــرى السّــاحاتِ فيضــاً مــن قلــوبٍ وأبــوابُ الــرّدى غصَّــتْ زحامَــا
فيــا أبطــالُ يــا شــهداءُ قومــوا تــروا إقــدامَكمْ بــالعزمِ قامــا
أديــمُ الأرضِ إذْ شــربَتْ دمــاكمْ تقــدّسَ ســرُّها أرضــاً حرامــا
فــبطنُ هضــابها وردٌ وقمــحٌ ووجــهُ سمائِهــا أضــحى يمامــا
ومــنْ رمــسٍ تنــاهى باتِّســاعٍ يصــبُّ علــى نــدى الفــردوسِ جامــا
ومِــنْ شــرفاتِ كرمتِهــا شــهيدٌ يطــلُّ مُناغيــاً للشَّــامِ : مامــا
ألمْ تَــرَهُ مُحيَّــاهُ مَــلاكٌ ذراعــاهُ يُحيقــانِ اليتــامى؟!
وعينــاهُ المُهاجرتــانِ نــورٌ أزاحَ الظُّلــمَ واخــترقَ الظّلامــا
وتحــتَ حذائِــهِ قطعــانُ (يَهْــوَهْ) وفي يُمنــاهُ وردٌ للأَيــامى
إذا مــا ســالَ قلــبُ الطّــودِ نهــراً نمــا الزيتــونُ والــوطنُ اســتقاما

شموعُ تشرين

أ. عصام يوسف حسن

أَضِـيئي شُـموعَ التَّشـارينِ فِينـا ورُفِّـي علـى جُرحِنـا ياسَـمينا
وسُـلِّي مِـنَ المُـدْلَهِمِّ البَهـيمِ سـيوفَ الصَّـباحاتِ نَصـراً مُبينـا
أَيـا شـامُ يـا قامـةَ الكِبريـاءِ ويـا مَـوردَ النُّـورِ لِلوارِدينـا
ويـا قَلْعـةَ الـواثِبينَ الكُمـاةِ السُّـراةِ الغَطارِفَـةِ الفاتِحينـا
ويـا شُـعْلَةً في ذُرا قاسِـيونَ تُـنيرُ المَفـازاتِ للتَّائِهينـا
ويـا سِـرَّ كُـلِّ حُـروفِ النِّـداءِ وعِطْـرَ الرِّسـالاتِ و المُرْسَـلينا
مَشـارِقُ تشـرينَ فاضَـتْ نُسـوراً تُطَـوِّقُ بالغـارِ منـكِ الجَبينـا
وخَفَّـتْ إليـكِ أُسُـوْدُ العُروبَـةِ لَمَّـا رأَتْ في حِمـاكِ العَرينـا
صـواعقُ بـالحقِّ تُلقـي لَظاهـا علـى هامَـةِ الهَمَـجِ الغاصِـبينا
وتَكـنسُ بالعَصْـفِ ليـلَ الطُّغـاة فَيطـوونَ أَعلامَهُـمْ خاسِـئينا
ومـادَتْ بِأَلْوِيَـةِ العِـزِّ (سِـينا) و(جـولانُ) يَنـبضُ بالغالِبينـا
وفي قِمَّـةِ (الشـيخ) رايـةُ نَصـرٍ مُخَضَّـبَةٌ بِـدَمِ الخالِـدينا
قـرابينُهمْ شَـمَمٌ في ذُرانـا وأنـوارُهمْ سَـمْتُنا مـا حَيينـا
بهـم تُبـدعُ الأرضُ خُضْـرَ السَّـنابلِ والأُمَّهـاتُ تُسَـمِّي البَنِينـا

وهُـــمْ روحُ هـــذي الـــبلادِ وخضـــرةَ آفـــاقِ أَحلامِهـــا يَحرســـونَا
وهُـــم جـــذوةُ الأَمـــلِ المُرتَجـــاةُ تَعاصَـــتْ علـــى ظُلمَـــةِ الظَّالِمينـــا
أَيَـــا شـــامُ عِنـــدي حـــديثٌ طويـــلٌ أُحـــاولُ ألاَّ يكـــونَ حَزينـــا
حَملْـــتِ بقَلبـــكِ جَمْـــرَ العُروبـــةِ ســـيفاً صَـــقيلاً و عَقـــداً مَتينـــا
وإِنْ فـــارَ تنُّـــورُ خَطـــبٍ جَســـيمٍ وحاصـــرَها المـــوجُ كنـــتِ السَّـــفينا
لَكَـــمْ خـــاضَ في دَمِـــكِ الأَبْعَـــدونَ وأَغـــرَوا بِنُضْـــرَتِكِ الأَقرَبينـــا
وإِنْ أَضـــرمَ الغَـــرْبُ نـــيرانَ غَـــدرٍ تـــراهُمْ بِخـــدمَتِهمْ حاطِبينـــا
فَطَـــوراً ذِئابـــاً أَتَـــوكِ و طَـــوراً يَهـــزُّونَ أَعطـــافَهمْ : ســـامِحينا
فَيـــا إِخـــوةَ الجـــبِّ مـــا تَرشـــدونَ ؟! أَمـــا آنَ أَنْ تَتـــدَموا صـــادِقينا ؟!
لـــكِ اللّهُ مِـــنْ حُـــرَّةٍ لا تُضـــامُ ورغـــمَ الرَّزايـــا أَبَـــتْ أَنْ تَلينـــا
جَـــرَادُ المُـــرابينَ رَامَـــكِ دُنيـــا وإِنَّـــا عَشِـــقْناكِ دُنيـــا و دينـــا
فَيَـــا بِنْـــتَ فِينيـــقَ مُـــدِّي الجَنـــاحَين ظـــلاً علـــى أَهلِـــكِ الصَّـــابرينا
وحِفْظـــاً لِعَينَيـــكِ مِـــنْ كُـــلِّ سُـــوءٍ أَمَـــدَّكِ مَـــولاكِ بالحافِظينـــا
طَلَبْـــتِ المَعـــالي بِقُـــدسِ الـــدِّماءِ وســـوفَ يكـــونُ الـــذي تَطلُبينـــا
أَضـــيئي شُـــموعَ التَّشـــارينِ فِينـــا ورُفِّـــي علـــى جُرحِنـــا ياسَـــمينا

داليةٌ وخمسون عنقوداً

في الذّكرى الخمسين لحرب تشرين

أ. غسان لافي طعمة

خمسونَ عنقوداً تدلَّتْ من دوالي الذَّاكرة
لكنَّ أوَّلها تعتَّق في خوابي الرُّوحِ،
فانسابتْ سُلافاً من خلايا العاشقَ المفتونِ بالوجد الدِّمشقيِّ الحنونْ
الحبَّةُ الأولى تدغدغُ ما تبقَّى فيَّ من زمنٍ تناءى في الزَّمنْ
وتثيرُ أمكنةً تعيشُ بخاطري طيَّ الشَّجنْ
في بابِ توما كان يوم السَّبت مختلفاً عن الأيَّامِ،
أقرأ في وجوه النَّاسِ أوهاجاً تقولُ ولا تقولْ
وكأنَّني بالقبح مهزوماً على مرمى الأفولْ
لم تمضِ ساعاتٌ... وكان الفارس العربيُّ مُحتضناً بياضَ الشَّيخِ
مُمتطياً حصانَ الغار في عرس الفصولْ
الحبَّةُ الجذلى تجلَّتْ في فِراخ النَّسر فوق الشُّرفة النَّشوى بدُمَّرَ،
كان نسرٌ يقنص الغربانَ في أسمى سماءْ
وفراخُهُ تشدو مزامير الكرامة والإباءْ
والحبّةُ السَّكرى تغذَّتْ في –الرَّفيد - من التُّرابْ
-عدنانُ - يغرس ساقه في تربة الجولانِ،
كي تنمو رجالاتُ الصَّواعقِ والسَّحابْ
ويقولُ للمحتلِّ: أبقى في ظلام الأسر آلافاً

ولا أُدعى ذليلاً أو سرابْ
وأعود من أسري بلا رِجلين محمولاً على ألقِ الغيابْ
والحبَّةُ الكبرى تبارتْ في حلاوتها كريَّاتُ الدَّم العربيِّ،
من – مِكْناسَ - حتَّى واحة – الأنبارِ - والنَّخل المقدَّس في –الصَّفا -
وَ – كمالِ نصرٍ - والخلايا تستحيلُ قذائفاً في وكر صهيون المنيعْ
فإذا الرَّبيعُ يسيلُ في أزهى ربيعْ
وشقائقُ النُّعمان تروي قِصَّة الأرض الَّتي
-أدونُ - روَّاها بنطفات النَّجيعْ
أوَّاهُ يا زمناً تناءى
كم تؤجّجُ جذوةً بين الضُّلوعْ!!
وتقولُ للباكينَ فوق دمارنا:
سِفْرُ الحياةِ دماؤنا
والموتُ في نعش الدُّموعْ.

*****

إشارات:

1 - يوم السّبت: انطلاقة حرب تشرين السّاعة الثّانية إلا عشر دقائق ظهراً.
2 - الشَّيخ: جبل الشَّيخ.
3 - عدنان الحاج خضر: الطَّيَّار العربي السُّوري الذي أُصيب وغرس ساقه المبتورة في الجولان.
4 - كمال نصر: الطَّيَّار العربي السُّوري الذي فجرَّ طائرته في موقع صهيوني حصين.
5 - آدون: أدونيس: إله الخصب والانبعاث عند السُّوريين.

ضفاف

أيها العابر.. أيها الغريب

د. مأمون الجنَّان

أيها العابر.. أيها الغريب

د. مأمون الجنّان

على أجنحة الخيال وعالم السرد الشعري وفي غابات الحراك الملحمي الذي يجمع الشاعر بديع صقور بين الخيال والحلم، فما أضيق العيش لولا فسحة الخيال وشعلة الحلم.. في مجموعته الشعرية تناول الشاعر الملحمة الشعرية من خلال تجربته الشخصية وما رسّبت عنده هذه التجربة فقد صاغ مجموعته على شكل ملحمي فتناول فيها الشاعر قصص الحب ووجدانية الوطن لذلك يلقي شعره خارج حدود المألوف ليصبح فيما بعد نصاً محصناً يتسلل إلى النفوس.

ضمن الأفق الواسع المتعدد والمتخيل ظناً منه أنه يتجه بالمتلقي إلى مكان مهجور ليحمي نفسه فإذا أسقطنا هذه الفكرة على الواقع الشعري والثقافي نلاحظ أن نص الشاعر بديع صقور يعاني في مراحله الأولى من النظرة الأحادية التي تتحدث عن مراحل بناء المجتمع لذلك يحق لنا أن نتساءل عن نوع النص الذي يكتبه وما هي القدرة على أن تتلمس المسؤولية الحضارية التي تجعلنا نقطف من بستانه ألف وردة وتتشكل فيها التناقضات من كل الألوان وتفوح منها أزكى الروائح العطرة في كافة مجالات الحياة:

أيها الجالس وحيداً فوق شرفات الكون
ها أنا ذا أجلس وحيداً مثلك
عند سفوح الحياة
ألا تحسُّ بالضجر مثلي
وأنت تنظر بعينين ذابلتين
إلى هذي الغيوم.. إلى هذي النجوم[1]

لا يختلف اثنان على أن النظر بعين واحدة إلى أي شيء يجعلنا نرى جزءاً يسيراً منه أو زاوية أو سطحاً معيناً عبر ذاته لذلك يستدعي منا النظر بالكلية وبعينين مفتوحتين لتجعل من رؤانا غير مؤطرة مسبقاً لتتناغم مع رغبة معرفة الحقيقة ونتلمس مواطن الجمال وتمنحنا هذه الرؤية بعدالة الكلمة والنص العابر مع الغريب وهذا يؤدي إلى حضور الخيال في النص الشعري عند شاعرنا وحضوره في مختلف

مناحي الحياة ليأتي النص على شكل السرد ومفهومية النص الشعري والدور الذي يلعبه التقريب بين الملحمة والفلسفة لذا يبدو دور الخيال في النص الشعري عند بديع صقور مجرد جامح وله شطحات على شكل مغامرات في فضاء النفس البشرية تتجسد وتتناغم مع جمالية الخيال والشطحات والجموح والرؤية ما يجعله أقرب إلى هذا النمط المتأرجح على الساحة الأدبية لجهة الفكرة الحلم التي تلغي أضغاث أحلام الآخرين:

باسمنا يتكلم السادة الخطباء..

باسمنا يرفع القياصرة صولجاناتهم..

باسمنا تتصدر أقوال الساسة عناوين الصحف

باسمنا يكتب الشعراء قصائد الحرية

باسمنا تفتح المحاكم كل صباح

باسمنا يجلس المنظّرون والعلماء والفلاسفة والأطباء والثوريون..

وباسمنا يغتسل الفجر.. وتتحاصر الفراشات ويتوقف زحف المطر..[2]

وهذا الفضاء له دور في النص الشعري لدى الشاعر أدى إلى الجمالية المعاصرة تكلمت عنها جموع المثقفين لأسباب تعود إلى جملة متصورة ومتلاحقة تحيط بالثقافة لذلك لم يعد شاعرنا يؤمن بوجود هكذا أبطال شعراء..

خاصة أن الزمن الحالي لا تحكمه البطولات الفردية بل ينبغي أن نشجع شخصيات وقامات أدبية عظيمة على تناول احتمالات علة النمط الأدبي شعراً غرائبياً ويتعلق بالفطرة الإنسانية وتتماهى مع السرد الواقعي والطبيعي مع تردد الأحلام حتى الثمالة فأي متابع لحراك البحث الأدبي وبخاصة الشعري يجد جميع النصوص والاحتمالات مفتوحة ومتعلقة بالنفس البشرية وهو السلوك الذي يخرج به المرء عن طوره ويجرح مشاعر من حوله لذلك الغضب مرفوض وملعون ومحظور ويغضبه الصبر:

كل مساء ألم شمل الدروب

وأطوي هموم قامتي في حقائب الليل الغريب

وتطوي لؤلؤ العمر الغريب

مثلما الأرض تطوي الجسد

ومثلما الأرض تطوي المطر[3]

تتشكل تجربة النص الشعري عند الشاعر بديع صقور كعلامة مميزة للجنس الشعري والأدبي بشكل عام لاستجابة نصوصه الدائمة لجهة تميل إلى التأصيل وتكاد تكون ملامحها خاصة ومتفردة فهي تشكل ظهور أصوات متعددة وتنحدر إلى مكانة بارزة في المشهد الشعري وتطوره ومواكبته لتحولات الواقع.

سألتني أمي مذ كنت صغيراً

ما الهيِّنُ يا ولدي وما الصَّعب عليك؟

الهيِّنُ يا أمي قطف غيمة

والصَّعبُ يا أمي قطف رغيف[4]

ويبدو من خلال هذا النص محاولة جادة للدلالة الإيحائية لتعطي تكاثف الانزياحات ذاتياً من ملامح النص في الوصف وتأخذ اللغة بُعداً غنائياً حيناً وفنياً حيناً آخر وتدل على جماليات الموصوف وتتجلى بوضوح من خلال تعبير الشاعر عن البصر والأذن الفاعلة في النص لذلك فإنّ الرؤية ملتصقة به يشبه ولصاحب الرؤية الخارجية والذاتية مشاعر الموصوف قد تنفذ إلى عوالم أخرى معتمدة على علامات وفنيات من وجهة الضمير:

يسرقون رغيف العمر

يسرقون كل ما جنيناه

يسرقون الحياة ويمنحون النوم الأبدي

غير أنهم لن يستطيعوا سرقة الحب من قلوبنا

***

آخر الهدايا من الدنيا كفن

آخر البيوت قبر

نأتي بعدك

يأتون بعدنا بكامل غربتنا بكامل صمتنا

في تربة السهل نذوب إلى تربة السهل نعود[5]

ثمة ذات مدركة واحدة إدراكها بصيغة الجمع وتدل على قدم على مسرح الواقع عن طريق المحاكاة بمعنى أن الواصف حين يعبر عن معرفته بالشيء فهو يقدم ما تراه عين الآخرين من فكرة متخيله ومن رؤية مجردة مشحونة بدلالات إيحائية وعلامات تعبر عن الذكرى وتعود بنا إلى الماضي السحيق وتركز على الانتباه لأمور محددة دون سواها نازعاً بنصه إلى التخفي المباشر ليظهر البعد من وجهة نظره فهو يغيب بل يخفي الغياب ويلجأ إلى محاكاة الواقع، وتشهد عليه نصوصه والصور المسخرة لإقناع المتلقي بها:

أيها العابر.. أيها الغريب

أنت أيها البشر [بقرب] الظلمة وفوضى المارقين

إن مررت هنا وشاهدت أرضاً مغطاة بالورود والشقائق

هذه هي أرض سورية وأنا ابن هذه الأرض

إننا نقطن بلداً واحداً هو العالم نحن أبناء سورية

أبناء الشمس قطرات دمنا ورود هذه الأرض وزهرات الفجر

أرواحنا غلت في سمائها هبطنا كالنجوم صباح الشقائق صباح الحب

صباح الأرجوان وصباح المطر(6)

***

أسرج حصان المدى لأحل أطراف الغيم

هنا عند قمة حرمون فوق هضاب جبل الشيخ

أجمع أرواح الطيور وأقص عليهم حكاية الثلج والشهباء

أنتشي بسماع موسيقى المطر من هنا أطير إلى أعالي الجزيرة

... هناك لقيود المنسيين في تدمر فضينا في قلعة الحصن

للفلاحين الهابطين الأنجاد والسهول منشداً مع القبّرات

مواويل النبيذ والعتابا وأبو الزلف..[7]

هنا تظهر وظيفة الإيهام والواقع من خلال الوصف الاستقصائي وتسميته الأشياء والأماكن الكامنة خارج النص ولا تختزل الإدراكات المتمثلة المبكرة والموضوعية مما يزيد النص الشعري عند بديع صقور عمقاً ويكشف تسربها من محاكاة سردية مباشرة ويبدو أن ثمة فاصلاً بين الذات الواصفة والشاعر المتضمنة وجهة نظره من خلال الخطاب الوارد في الزمن الماضي المتضمن إشارات صريحة دالة على الأحداث وترتيبها وفق منهجية معينة ووفق أفق نحو الانتظار وتشوق إلى اللاحق من الأحداث..

هنا أجلس هنا أنام عندما يداهمني النعاس

أغلق دواتي وأعلقها على غصن حلم ألم أوراقي

خوفاً من أن تبعثرها الريح المغطى في جيب غيمة

هنا على سفر جديد على سرير هذا البحر نخطو

وكموجة أنام على ظلي..[8]

تضمنت المجموعة الشعرية أيها العابر أيها الغريب وجهات نظر متعددة منها ما هو محقق فعلاً من خلال الخطاب الوارد على شكل حدث لزمن ما، ومنها ما هو متخيل تؤسس لرؤية الواقع بطريقة منتقاة وفق النموذج الذي يحتوي على هندسة المفهومية والأفق الفكري المتجدد سابق لعصره ويتبنى فكرة (الفعل الحرية فكراً وكلاماً وتعبيراً) وقد تصف نصوصه الشعرية مشاعره الجياشة فيورق الشجر ويهطل المطر ونلاحظ ما تحمله هذه النصوص من دلالة جامعة بين مصلحة الشاعر ومشاعره والطبيعة البشرية عبر الحركة والسكون وابتهاج الطبيعة فيعم الخير حتى يشمل الجميع وينتشر ويحضر حضوراً لافتاً يطمح إلى محاكاة الواقع وبذلك يختفي صوت الشاهد لكن تظل العلامات شاهدة عليه ومشيرة إليه، وتكشف مواقع وبواطن خفية بعد أن وظفها الشاعر بهدف الفهم والتفسير من منظور الذات فهوي يخفي الأنا الماثلة أمامنا فقد وظف شاعرنا الأساليب الفنية ببراعة للإمتاع حول عالمه المتخيل وعبر تضمين الصور المتلاحقة والمتواصلة لتجسد العالم المتخيل ضمن مفاهيم خاصة بتقديم المعرفة الصحيحة كونها وجهة نظر الذات الواصفة المستقلة بمكوناتها الدالة على أهمية بناء العالم المتخيل ومن الملاحظ أن نصوص الشاعر بديع صقور تقدم معلومات يجهلها المتلقي غالباً وهي معلومات تتعدى في مجملها المكون الإدراكي الحسي القيمي والمعرفي:

أول الحب على هذه الأرض
آخر الحب على هذه الشواطئ
أول الحروف من مداد هذا البحر
وأول البحارة المستكشفين
أول العواصم وبداية الشعر
لست عبداً لأحد
ولن أكون «قافلة العبيد بين تلة الكابيتول»
وحائط «المبكى»
ما كنت راعي إبل عند شيخ
تنتخي لفحولته الأعراب
ولا حارساً على بئر نفط
أو داعية للركوع أمام آلهة من تمر[9]

ويستخدم شاعرنا مصطلح الثقافة الشعبية بوصفه مضاداً لمصطلح الثقافة النحوية، فنصوصه تدفع باتجاه الأدب الشعبي خلافاً لأدب النخبة ويثير فيك البعد التراجيدي الدرامي ضمن محتوى مركباً تركيباً إضافياً يخيل لنا من خلال طرفة عين أننا نخضع لقواعد لفظية مخصصة تبين الجنس الأدبي وهواجسه بطريقة أقرب إلى السردية الروائية:

فردَتْ يديها كجناحي طير..
رنت إلى السماء، وهمست للريح:
تكفي القلب رصاصة..
رصاصة واحدة..
يكفيه طعنة.. طعنة واحدة..
يكفيه أنه مات..
لم يكن بحاجة لساطور يشوّه وجهه وعنقه
ورأسه وذراعيه وقدميه، وقلبه..
يكفيه أنهم قتلوه..[10]

يتناول الشاعر الظواهر الاجتماعية ويحولها إلى مدلول شعري يرتقي بنا إلى المستوى الدرامي في النص الأدبي وتقترب من مكونات الفضاء السردي المشتمل على معنى الإنسانية مستخرجاً القيم الرمزية فيه، الأمر الذي يحول النص الشعري إلى بنية مفتوحة تعرب وتفسح في المجال عن جموحها وهواجسها على أساس الحركة والتجسيد والانتقال بالهم الخاص إلى الهم الموضوعي، مع الشعور الذاتي فليست ذات الشاعر منعزلة عن التفكير بل هو يقدم شعوره عبر خلجات الذات المشتتة والمشاعر الذاتية في غنائية واضحة بين صوره التشبيهية وأخرى متخيلة، لذلك تجد لدى الشاعر مقابلة بين الصورتين وبين صورة مضادة التي هي أقوى تأثيراً بادياً الوعي الشعري في نصوصه بأشكال مختلفة ورؤية خاصة كأنه في حوار صوفي نادر واضح فيها هذا الخطاب واللغة المتأنية لما فيها من توازن تزييني للدلالة الفنية الراقية المندمجة مع السياق متفاعلة مع نفسية الشاعر تاركاً بصمته في اختياراته وكيفية صياغتها ويقدم الشاعر مفارقاً التصور المعهود معتمداً على النقد الذاتي منطلقاً من فكرة النص المراوغ في إنتاج

الدلالة، والأنساق المضمرة وفاعليتها المتعددة لتناسب فكرة النص..

ولعله من المهم الإشارة إلى أنه وعلى الرغم من حرصه على الخروج من دائرة العبثية فإنه يفيض شعره بعيداً عن الجغرافيا محللاً على نحو وصفي ومحدد للسمات العامة التي عرفت كبوح أخير للإحساس كريشة رسام يرسم أوراق الخريف الصفراء التي تبعثرها الريح المجنونة فكانت نصوصه الشعرية ترمي شباكها كحسناء لتتجاوز وتعبر بنا إلى الموقف وتمنحنا ذلك الحب دون حساب بشكل ارتقائي يشهد لها كثير من النقاد لما آلت إليه البشرية وتقدم لهم النص الشعري كأنه قصة من قصص الأدب المثيرة وتشعرك بالعطش والجفاف للمزيد من النصوص كأنها رشفة قهوة أمام مقهى رصيفي:

على ضفة الشروق
تحت ظلال صفصافة يتيمة
جمعٌ من حناجر صغيرة
تنوح كناي..
ذؤابات الشروق تطولها ألسنة النار
كان من الممكن إيقاف الحريق
بتحريك أصابع الندى
حتى لا تجفّ التنهدات المنطلقة
من حنايا أعماقهم البيضاء
وكي يواصل الناي عزفه الجميل..[11]

وقوله:

أقدم لك روحي
فهل لك أن تعيرني قليلاً من دفء روحك
كي لا أشعر بالبرد؟!
دوار في رأس الأرض
الأرض ضجرة
ولا متسع فيها لزهرة
ميادين القتل تتسع
وما من أحد إلا ويدعو إلى مزيد من القتل![12]

ويقدم لنا الشاعر نوع من المعنى الشعري المجازي باستخدام المزاوجة المناسبة بين الصفة والموصوف بحيث يتخلى حيناً عن الوظيفة النحوية المنوطة بالنص لتؤدي الوظيفة المجازية التي تتمتع بنسبة عالية الوضوح للتخيل الشعري إذ يتولى تحرير العبارة مخترقاً التقنية التشبيهية المجسدة دون أن يبتعد كثيراً عن الصيغ المتسأنسة من التعبير الشعري[13].

وقد يلجأ الشاعر إلى الحذف بغية التعمية عن المتلقي لإيهامه بعمق نصوصه الزمنية بين الحدث وزمن السرد الشعري فهو يتعمد الحذف في عدة مواضع لبعض الكلمات التي لا تليق بروحه ويترك المتلقي ليسبح في الفضاء الشعري ويضيف إلى نصوصه ما يشاء مع وضع عدد من النقاط كدلالة على انتهاء النص الشعري لتترادف الجوانب النفسية الظليلة والإحاطة بها فيقل

الخطأ ويلمح الشاعر إلى اللغز الحالي الذي يعيشه الواقع العربي المر التي غابت عنه قيم الفروسية النبيلة ومفهومها، وهنا تكمن المعضلة حقاً فهو ينهض في نصوصه بالمجتمع إلى مراقي الكرامة الوطنية الإنسانية كحالة من الوعي المشرق ويتسم نصه الشعري في هذه المجموعة بالخطابية المباشرة ولا يخلو من الصور الشعرية البسيطة التي بدت وكأنها باهتة لكنها ألفاظ لها روح العامية تزيد عن النثر بالوزن والقافية وهذا النثر الفني يمتاز بخاصية التركيز إذ جاء مطابقاً للواقع بحذافيره فضلاً عما يميزه هذا الفن عن غيره[14].

وبناء على ما سبق فإنه يتبين لنا أن الشاعر صقور انتهج مبدأ المباشرة والتقريرية في بعض أشعاره ونصوصه نتيجة وعيه الفكري والوجداني ما أدخل صوت العقل على حساب بعض المخيال والإيحاء واقترب من اللغة النثرية بين عناصر البنية الفنية التي أفرزت هذا النوع من الشعرية التصويرية والإيقاعية في شعرية الخطاب وتفرده الذي ينبع من تعانق التراكيب المميزة مع العناصر الأخرى:

فضاء آخر الطيوف

بداية الانكسار..

أول الخريف..

دويّ الصوت يعمّ حقول الليل

متى تتوقف الريح عن نقل

صرخات جراحهم إلى حاضنة الأبد؟!

الأبد دخان.. الهروات دخان..

الطغاة دخان.. الاشتراكية دخان..

الإمبريالية دخان.. على صفحات السديم

تلاشى دخان أعمارهم

وتبدد في فضاء البياض..[15]

وبتطور لافت للصورة في شعره الحديث فلا تعتمد على الشرح والتوضيح والزينة الشكلية بل تؤسس للتفاعل الوجداني المطلوب بين النص وبين المتلقي لتغدو وكأنها وظيفة عضوية مركبة في النص الشعري وبفاعلية بين اللغة والفكر كوسيلة للتجديد والانطلاق نحو التعبير بفضاء سابح أو أداة للتعبير الوحيد عن الرؤى وواسطة تفكيرها لبيان حقائق الأشياء ورؤاها[16].

ويستثمر الشاعر هذا الأسلوب لإبراز جوانب تعجز عنه الكلمات حقاً عن تقديمه ويؤسس لعدد من النقاط للدلالة على طريق الكماشة كأنه يقبض على شيء ما ليرمز بها إلى شكل من أشكال الإيهام والإيحاء والمجاز بغية تأسيس حالة من التوتر والانفعال التي تسيطر على كيانه ما أسهمت في تقديم بنى فنية جديدة مكّنت الشاعر من استثمار كل ما اختزنته ذاكرته المعرفية وثقافته بهدف إفراغ انفعالاته وتقديم مبسط لرؤاه في تقديم الصورة التشبيهية للدلالة على أن لا حدود للخيال بل على العكس فإن استخدام الشاعر بديع صقور لهذا النوع من

الفنيات الغنية والجديدة كأداة للتشبيه وكوظيفة إيحائية جمالية لم تكن موجودة سابقاً كصورة استعارية تعبر عن رغبة حقيقية وعميقة للعقل الإنساني في اكتشاف عوالم أخرى من السحر والجمال لتجسيد وانعكاس وتفاعل الذات الشاعرة مع موضوعها[17].

وتتيح هذه الدلالة المتعلقة بالمعنى وتحقق تلاؤمه مع المعنى الجديد الذي يفرضه السياق والاختيار ما يجعل الاستعارة وسيلة لتخفيف بعض العناصر غير الضرورية وإبرازها للصفة العالية ما يجعلها تلح على العنصر الضروري للتفسير الملائم[18].

عندما أنجز السياف أوامر الملك
خرّ على ركبتيه راكعاً مطأطئ الرأس:
نفذ الأمر مولاي الملك..
أنهار صوته غزلان تجري..
النار تزهر ياسميناً..
عمامة ابن خلدون فراشة ترفرف
فوق أزهار التاريخ
هذه النار تأكل مِداد الحقيقة
ولا تشبع...[19]

تشكلت لدى الشاعر عدة محاور من خلال نصوصه الشعرية والنثرية الفنية الخصبة في سلخ مظاهر الجمال والبهاء عن الطبيعة بتعاطف جلي عبر إمتاعنا بهذه الجمالية التي تؤشر وتؤسس للكثير من قيمة الربيع الذي يبعث البهجة في النفوس فما قيمة الورد بلا لون ولا رائحة وما قيمة الأرض من غير الأقسام، فإن الشاعر يوجه نحو الفرح بشعره فهو يعادل ملخص الحياة باعثاً للرمز في أغلب نصوصه مثل: الريح، الدم، والنار، والضباب، والقتل، والرمل التي بدورها ترمز إلى العلمية حد التلاشي وتأخذ أبعاداً رمزية أخرى:

الاغتيال يطال عصافير الريح..
الغبار يرشق نوافذ الماء
مشهد عبثي
ولا من يسفح دمعة حزنٍ على العصافير
الأحلام سحابة عابرة
زنار من المطر يطوق خصر الحقول
كمشة من غربة وقمر بعيد
في غفلة من الليل
بينما كانت تتسكع في أزقة الجمر
احترقت وسادة النوم[20]

وتتسم نصوص الشاعر عامة بحضور الخطاب والأقوال والأحداث المثقلة وإيقاعها السردي اللاهث وراء تقنية الوصف وعلاقة انفعالاته الحوارية التي تفصح عن الواقع حولها مع بعض الاستثناءات في المساحة والحركات التي تمثل المواجهة الروحية لبعض عزلته القسرية ويكتوي بأوارها مهموماً بالحديث عن عزلة المثقف ووحدته الهارب نحو الحرية من عالم ينذر بالخراب ويضمن نصوصه الأدبية ويكشف دور

الأدب الشعري والنثري في حراك المجتمعات ويطرح السؤال تلو السؤال عن الجدوى والكتابة في القصة والشعر والمسرح ويرى كأنها مضيعة للوقت أو ليست إلا وسيلة للتسلية فيما يرى آخرون أنها تعبر عن نوع من التغيير ولو بعد حين فالهاجس الأكبر عنده إشعال المشاعل نحو وعي المجتمع على الوجه الأمثل وهنا يبرز سؤال يتعلق بما كان استمرار الكتابة وتنوع الفكرة شرط لازم لإيصال الفكرة وتنوير القلوب لتدفق الأفكار المكتوبة بطريقة المحاكاة للغرائز البشرية أم بداية التألق لتتعش القراءة في المجتمع وتطال معظم أفراده ومعظم النشاطات الاجتماعية الثقافية.

وذات فجر بعيد يا أمي
أول الحلم «كوز» ماء ورغيف
وآه.. أيها الحب الذي رحل!
آه.. يا زعفران الجبال!
ويا نبع زهر الليمون!
يا رائحة الدرب الصاعد إلى رأس الجبل!
يا موجة تنشر شراع الحكاية
وتبحر في أعالي بحار الضياء
وأول فصول الغربة يا أمي
كيف اقتسمنا مع الشتاءات برد الأثاث في
ووحشة الأيام؟!
وأول الأسفار يا أمي![21]

ومهما يكن صحيحاً أن نصوصه الشعرية تتطلب قراءة وتحليل معرفي عالٍ نسبياً فإن أكثر الأسئلة دالة في هذا المجال على الأداء والمقاصد وعلى النحو الفني للجزيئات والتفاصيل ضمن النص كما في نصوصه عموماً وعلى الرغم من محاولاته الواضحة لجعل رؤاه لها مسوغاً على نحو كافٍ فنياً إلا أنه يبحث عن طرق أخرى ليطل من الصورة التي جعلت من المشهد الشعري لا يشبه إلا نفسه فقط:

آخر الليل
آخر الصبح
أول السبت
وأول الغياب
يا «جمال المحامل..
ويا حطاط للهايم عشاه»
مات «أبا زيد» وماتت «الجازّية»..
أغلقت «التغريبة» صفحاتها
تبعثرت الأوراق وغفتْ الحكاية
انطفأت جمرات «الأثفية»
ولا من يغطي بارد الأيام بـ«أنا البردان دفوني..»
ولا من يجلب الماء من عين «الرستين»
ويقدم لي «طاسة» فيها الهناء
وفيها الشفاء[22]

المراجع:

1 ـ المجموعة الشعرية لبديع صقور (أيها العابر.. أيها الغريب)، طبعة عام 2012، دار ليندا للطباعة والنشر والتوزيع ـ السويداء ص4.
2 ـ المصدر السابق صفحة 5 -6، الدفتر البري لأعشاب البحر.
3 ـ المصدر السابق صفحة 9.
4 ـ المصدر السابق جنحة صفحة 11 -12.
5 ـ المصدر السابق صفحة 14 -15.
6 ـ المصدر السابق صفحة 22 -23.
7 ـ المصدر السابق صفحة 24 -25.
8 ـ المصدر السابق صفحة 28.
9 ـ أيها العابر أيها الغريب صفحة 35 -36.
10 ـ السابق صفحة 60.
11 ـ أيها العابر أيها الغريب صفحة 78.
12 ـ المصدر السابق صفحة 66.
13 ـ راجع كتاب أساليب الشعرية المعاصرة لصلاح فضل صفحة 56.
14 ـ راجع كتاب الحركة الشعرية في فلسطين المحتلة لصالح أبو إصبع صفحة 373 وما بعدها.
15 ـ راجع أيها العابر أيها الغريب صفحة 90 -91.
16 ـ راجع كتاب الصورة الأدبية لمصطفى ناصيف صفحة 8 طبع دار الأندلس ـ بيروت.
17 ـ راجع كتاب الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب لجابر عصفور صفحة 205.
18 ـ راجع كتاب الأسلوب مبادئه وإجراءاته لصلاح فضل صفحة 303.
19 ـ راجع أيها العابر أيها الغريب صفحة 91 -92.
20 ـ المرجع السابق صفحة 95.
21 ـ أيها العابر أيها الغريب صفحة 117.
22 ـ السابق صفحة 123.

رجع الصدى

- إيحاءات صورة النخلة وجمالياتها — أ. د. إلياس خلف
- التعبير النقدي في الجاهلية — أ. د. عبد الكريم محمد حسين
- من أدب الاغتراب..
  د. سليمان الصدي: تفاصيل برائحة الشوق.. — أ. سعد الله بركات

إيحاءات صورة النخلة وجمالياتها

في (طفل المعاني) للشاعر رضوان السح

أ.د. إلياس خلف

ترمي هذه الدراسة إلى النظر في دلالات صورة النخلة وجمالياتها في المجموعة الشعرية الموسومة بـ (طفل المعاني) للشاعر رضوان السح (1988). وتشير القراءة المتأنية لهذا الديوان أن موضوعة النخلة أثيرة لدى شاعرنا فقد وردت صورتها في العديد من قصائد المجموعة. وبغية الإحاطة بإيحاءات هذه الصورة نجد لزاماً علينا تتبعها ورصدها في ثنايا القصائد التي ضمتها دفتا هذا الديوان الشعري. ففي قصيدة أسماها "مملكة النخيل"، نرى أن شجرة النخيل ترمز إلى الجمال وجلال القوام والشموخ والرفعة. فسحر جمال امرأة هذه القصيدة يثير الذهول في متأمليه. ويتبدى هذا الذهول في خلال الأسئلة العديدة التي تعبر عن هذا الذهول الذي يشيع في ثنايا هذه القصيدة:

إلى أي حسن يكون انتماؤك
يا هذه الفاتنة؟
إلى أي مملكة للنخيل
جلال القوام؟
وكيف تجيئين في لحظة ذاهلة
فيغزو الرصيف انتباه ... !!
بحق الإله .. !
إلى أن مملكة للنخيل
جلال القوام .. !!

ويشير النظر الفاحص إلى أنّ صورة النخلة هي الوعاء الفني الوحيد الذي يكتنز جمال هذه المرأة ومهابتها وروعتها:

تجيئين، يا عالم الحسن، من ظلمة
عمّدت بالضياء ...

تدل صورة التعميد على طهارة هذه المرأة، وطهارتها هذه تحاكي طهارة شجرة النخلة كما سنرى في متن هذه الدراسة. وتغدو هذه المرأة بمنزلة النخلة المباركة التي يتطلع الجميع إلى تأمل جلالها وجمالها وثمارها الطيبة. ويعبر شاعرنا عن حالة

الذهول التي تعتري متأملي هذا الجمال الأخاذ في ظلال آلية التساؤلات التي تمسرح هذا الذهول:

تجيئين من غابة النخيل
تحار العناقيد فيها
إلى أي كف تميل
وكل الأكف إلى لمسها جائعة ..!
فمن أنت أيتها الرائعة ...؟

تدل عبارة "كل الأكف إلى لمسها جائعة" على نزوع الشاعر الصوفي، فجمالها ليس للمتعة الجسدية، إنه للتأمل فقط. وتكتسب هذه المرأة ملكيتها من عنوان القصيدة مملكة النخيل ، فتغدو ملكة تركع أمامها الأنظار، ويمسرح شاعرنا هذا الركوع في ظلال صورة حبو الأنظار الخاشعة:

تجيئين ... تحبو إليك عيون الرصيف
وأحبو أمام العيون الغزيرة
تجيئين ... يجلبنا الموج في تبج البحر
فيما تكونين أنت الجزيرة
بحق السماء
إلى أي سفح
يقود انحدار
الضفيرة ..

إذاً، صورة النخلة وعاء مجازي يكتنز جلال هذه المرأة ومهابتها وجمالها، وهي رمز للملكية والشموخ.

وفي قصيدة (قرى) المهداة إلى الفنان غسان صباغ، تبرز شجرة النخيل بوصفها إلهاماً كبيراً، تتجلى هذه الفكرة حين يتأمل شاعرنا جماليات لوحات الفنان المذكور، فيقف وقفة ذهول ويتساءل :

ترى ...!
كيف ترسم هذه القرى؟
وكيف ينام صباغك فوق الثرى
فيخصب ظلالاً ونوراً؟
تريح الظلال
فتسكن ... تسكن
حتى إذا ارتعش الغصن
ماست قليلاً .

تتبدى عبقرية الفنان المذكور أعلاه في قدرته على رسم مشهدية الطبيعة برونقها وبهائها اللذين تغنى بهما الشعراء الرعويون منذ عصور الإغريقيين القدامى. فالطبيعة التي صورها الشاعر الإغريقي الكلاسيكي هيسيود (Hesiod) والشاعر الروماني الكلاسيكي أوفيد (Ovid) وغيرهما من الشعراء، إنها تنبض بالحياة : الخصوبة والظلال والنور . يعبّر شاعرنا رضوان السح عن ألق الطبيعة في قرى صباغ فيرى الحياة بأجمل أثوابها:

فقد يحلم اللون بالدفء
يرسم صوف الخراف
ويأتي أليفاً صوت الضفادع
حين يخاف

وقد تغمر الشمس ذاكرة اللون
يصحو
فيغرق في رهج الضوء
في وشوشات الأقاحْ .

ما من شك في أن لوحات هذه القرى الساحرة وليدة إلهام فني سامٍ، كما يؤكد شاعرنا هنا:

إذاً .. هزّ جذع النخيلْ
فقد باركتك القبابْ
وأفضت إليك
بلغز التراب.

تذكّرنا صورة (جذع النخيل) بالصورة القرآنية الرائعة التي وردت في سورة (مريم) عليها سلام الله تبارك وتعالى. (5) بيد أنني أود التأكيد هنا أن شاعرنا لا يوظف صورة (جذع النخيل) لمجرد أغراض تناصية فحسب، إنه يستثمرها ليرسخ قداسة هذه الشجرة المباركة التي تبرز بمنزلة الملهمة لهذا الفنان الذي أبدع في رسم القرى موضوع هذه القصيدة، إن مباركة (القباب) للفنان حين يهز جذع النخيل ما هي إلا نفحات الإلهام ووميضاته، الأمر الذي يؤكد أن الإبداع والخلق الفنيين (والأدبيَين بالطبع) وليدا البركة الإلهية. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفكرة سادت الأوساط النقدية منذ الإغريقيين القدامى، فالشاعر الإغريقي هوميروس كان يطلب المدد من ربة الشعر (Muse) ابنة كبير الآلهة الإغريقيين، زيوس، وكانت تلهمه الشعر الوعظي الذي ينشد العودة إلى العالم المثالي في العصر الذهبي حين أطاع الإنسان الآلهة وسار على الصراط المستقيم.(6) وكان أفلاطون أيضاً ممن أكدوا الفكرة القائلة إن الإبداع الشعري من صنع الله، فالله يوحي للشعراء فينطقون بقصائد تحض على فعل الخير ونبذ العداء. (7)

ويتضح لنا أن إبداع الفنان صباغ لهذه القرى بركة من بركات الله عز وجل، لهذا نراه ينشر النور والأمل ويزيل الظلام والتشاؤم:

تراك إذا جئت بالأبيض الثلج
هل تدحر العتم في ماء روحي؟
وهل تشغل السطح، سطح انديا حي
بمرج الطفولة
والأصدقاء الصغارْ (8)

إذاً، إن ألوان الفنان (الأبيض الثلج منها) تزيل العتمة الروحية التي تؤلم شاعرنا وتبعث فيه البهجة، فتدب فيه الحياة "بمرح الطفولة"، وكل هذا بفضل قدسية شجرة النخيل التي باركها الله جل جلاله .

وتبرز رمزية شجرة النخيل وإيحاءاتها الكثيفة في قصيدة (نشيد الأنشاد) التي توحي بتناص فكري غير مباشر بـ (نشيد الأناشيد)، وهو سفر من أسفار العهد القديم حيث يتغنى نبينا سليمان عليه

السلام بحبه المنقطع النظير لله سبحانه وتعالى (9). يقول شاعرنا رضوان السح:

حبيبتي كنخلةٍ في الباب
أخبرها الصديق بي
فسارعت إليّ .(10)

وتستجيب الحبيبة لنداء حبيبها فتمده بالإلهام، مستثمرة الصورة القرآنية الشهيرة التي أشرت إليها آنفاً:

هل تسمعون ما يقوله الحبيب. يا بنات؟
أنا التي يحبها
كنخلة في الباب
فدونه التي يحبها
يهز جذعها
تساقط الأطياب.(11)

يبدو التناص واضحاً هنا، ففي سورة (مريم) عليها السلام نقرأ (وهزي إليكِ بجذع النخلة تساقط عليكِ رطباً جنياً) (12). ولكن يجدر التأكيد هنا أن شاعرنا لا ينظر إلى حبيبته نظرة جسدانية، إنه ينظر إليها بوصفها مصدر إلهام وإبداع، فهي تمكّنه من ولوج باب التأمّل والمعرفة:

شهية ثمارك
لكن شهقة الضلوع لن تفيقْ
مأخوذة بحسنك
مذهولة تقلب العيون في الرياضْ. (13)

نرى هنا أن حبّ شاعرنا يتسامى فيبدأ بتأمل جمال حبيبته الفاتن فيجد فيه آية من آيات عظمة خلق الله تعالى، وتدل القراءة المتأنية أن حب الشاعر لحبيبته التي تبادله حباً بحب يغدو صورة تعكس الحب الصرف الذي ينشأ ويترعرع في ظلال الحياة المثالية التي تقوم على الصدق والعطاء النابعين من الطبيعة الإنسانية البكر:

قد ابتسمنا أيها الغريبْ
لهذه الحسناء
التي كنخلةٍ في الباب
تدني من الذي يحبها
جناتها
لبنهُ... وخمره. (14)

توحي الألفاظ (الباب وجنات وخمر)، التي تحتل مكانة بارزة في المعجم الرضواني، بأغراض شاعرنا الصوفية، وغني عن الذكر أن صورة النخيل ذات أبعاد صوفية أيضاً في الأدب الغربي

(والإنكليزي حصراً)، فقد كان الحجيج العائدون من الأراضي المقدسة يحملون أغصان النخيل، وستكون هذه القضية موضوع بحث مستقل في المستقبل بعون الله (15)، فالباب هو بداية معراج شاعرنا نحو التأمل والمعرفة، والخمر ليس شراباً هنا، إنه السبيل للانتقال من دياجير الواقع من حوله إلى جنات النعيم، حيث الهناء والوئام بأسمى معانيهما:

حبيبي يسرّح فوق تلالي خرافهْ
أنا لحبيبي الذي لا يملّ النظر
لجنته المشتهاهْ
يعود إليها وقد غاب عاماً
هي الآن ملك يديه (16)

تتمظهر الطبيعة بأبهى مظاهرها هنا: راعٍ يسرّح خرافه فوق التلال النضيرة، وحبيب مأخوذ بحسن حبيبته فيرى فيها جناته التي يشتهيها، والحبيبة هنا ينبوع التأمل والإبداع، إنها الإلهام عينه، لأنه يترفّع عن الدنايا والدوافع الجسدانية، فيرى فيها أختاً تقاسمه أمانيه الجميلة:

جميلة، يا أختي العروسْ
فابتسمي ليسعد الجميع
بنجمتين من نضار
تهامسان في بلاد النورْ (17)

ترمز (بلاد النور) إلى ملاذ الشاعر إثر ترحاله الصوفي، فالحبيبة بوصفها نخلة (في الباب) غمرته بالإلهام فولج باب المعرفة وحلق قاصداً الرياض التي توحي بعالم العصر الذهبي حيث عاش الإنسان حياة سعيدة بفضل الآلهة والطبيعة المعطاءة.

وتتجلى صورة النخلة في قصيدة تدعى بـ (عارية)، حيث يقول شاعرنا:

سبحان إزميل السواد
مرّ على كل النهايات التي
يجرحها الوضوحْ...
ها موسم للقمح
هبت عليه شمس
مساحة للآه
وألف ألف عرس
نحلة ربها تطوف حول سرة السرورْ
أجيء من يمينها
صادفت نخلة تكلّم الطيور...(18)

لاريب في أن النخلة هذه تبرز بوصفها مصدر إلهام وينبوع إبداع، فهي تكلّم الطيور وتعلّمها كيف تشدو لتطرب الطبيعة والإنسان من حولها، وما الحوار بين النخلة والطيور إلا دلالة جلية على التناغم بين مخلوقات الله سبحانه وتعالى، ومن هنا نرى أن التناغم الذي صنعته ريشة الفنان صباغ في لوحاته الريفية، والتناغم بين الحبيب وحبيبته والتناغم بين النخلة والطيور ما هو إلا من صنع الله عز وجل الذي يلهم الفنانين ليتنيروا دروب الوئام الإنساني، وارتسم الإلهام الإلهي في ظلال صورة شجرة النخلة المباركة التي استثمرها شاعرنا رضوان السح ضمن إطار التناص، فأبرز إيحاءاتها الدينية والإنسانية.

وبعد: هذه هي النخلة الرضوانية أنها رمز الجمال المنقطع النظير، أنها رمز الشموخ والجلال، إنها ينبوع الإلهام الثر، إنها رمز الحب والعطاء الحقيقيين، إنها الأم الرؤوم التي تعلّم الطيور كيف تصدح لتسعد من يسكن في أحضانها من

مخلوقات أخرى، وحين يهز شاعرنا جذع هذه النخلة، تتوافد المعاني إلى مخيلته فيسكبها شعراً رقيقاً يخاطب ذائقتنا الفنية، فيدعونا إلى أجوائه الساحرة، لنتأمل أبعادها الرمزية الدقيقة.

الهوامش:

1- رضوان السح، طفل المعاني، أرواد للطباعة والنشر والتوزيع ، طرطوس، 1998 ص26.

2- وليام نايلز، العصر الذهبي الكلاسيكي، لندن ، 1990 ص5060-.

3- طفل المعاني، ص25-26 .

4 - المصدر نفسه، ص27 .

5- القرآن الكريم، سورة (مريم) آيات 2226- .

6- آلن روبنسن، الإبداع الكلاسيكي، واشنطن 1999، ص 12 -18 .

7- أفلاطون، الجمهورية تحقيق وليام كولن ، بينغوين ، لندن ، 1997 ، ص15.

8- طفل المعاني، ص25.

9- العهد القديم، نشيد الأناشيد .

10- طفل المعاني، ص46.

11- المصدر نفسه، ص46.

12- القرآن الكريم، سورة (مريم).

13- طفل المعاني، ص4647-.

14- المصدر نفسه، ص48.

15- كامبل تومبسون، عشير شكسبير تحقيق نورمان لارنر ، لندن ، 1998 ،ص1214-.

16- طفل المعاني، ص49.

17- المصدر نفسه، ص49.

التعبير النقدي في الجاهلية

أ.د. عبد الكريم محمد حسين

ناقد وباحث سوري

العملية النقدية تتلخص بموقف الناس من العمل الإبداعي شعراً أو نثراً، رسماً أو نحتاً، موسيقياً أو راقصاً، وقد جعل قدامة بن جعفر علوم الشعر خمسة (علم لفظه "لغته" وعلم معانيه "فكرته" وعلم وزنه "موسيقاه" وعلم قافيته "إيقاعه" وعلم نقده معرفة جيده من رديئه) مما يوجب على ناقد الأدب ثقافة لغوية وفلسفية وفنية موسيقية وإيقاعية وقدرة طبعية نقدية، جعل الصولي صفات النقاد دالة على موجبات ثقافتهم التي يوجبها النص العربي في مجاله بنيةً وفضاءً؛ فقال: ((ولا تراه إلا لمن صحت طباعهم، واتّقدت قرائحهم، وتنبهت فِطنُهم، وراضوا الكلامَ، ورووا وميَّزوا.))

فأول صفة أن يكون مطبوعاً على النقد، مُلْهَماً موهبةَ النقد، والنقدُ في تكوينه النفسي نحيزةٌ، وأن يخلو طبعه من العلل العارضة؛ لأن النفوس كالأبدان يعرض لها من العلل ما يعرض للأبدان. وهو الاستعداد الفطري للنقد.

وثاني الصفات اتقاد القريحة فاستعار الاتقاد من النار؛ ليجعل الأعمال الإبداعية بين يدي الناقد كالوقود في تنور الإبداع، يريد سرعة الاستجابة.

وثالثها تنبه الفطن في الكشف عن الأعماق أو كسر طوق الألفة في تناوش القريب مما لا يؤبه له، وذكر محرضات الإبداع: ترويض الكلام البعيد من ألسنة الشعراء وسياسته ليكون شعرياً منضبطاً، بتداوله من جديد وتوظيفه على نحو جديد، ورواية الأشعار أو الأخبار الجامعة للنثر والشعر معاً، وذكر البصيرة النقدية المائزة جيد الشعر من رديئه.

هذا ممر صغير لبيان ما وراء النقد في العصر الجاهلي، مستنبط من عمل النقاد في تناوش أشعار الجاهلية وغيرها؛ لأن النقد موقف إنساني من الإبداع ــ مهما يكن ــ تختلف صوره، وتبقى حقيقته

ثابته، وآلته الخفية واحدة، يستبينها من له بصيرة على نفسه.

كان تساؤل أستاذنا د. شكري فيصل ـ رحمه الله ـ: هل هناك مصطلح نقدي في النقد الجاهلي؟ وكان جوابه سنة 1977م غيابَ المصطلحِ النقدي، وأن الناقد الجاهلي يعبر بالصورة؛ لأنه يفتقد المصطلح النقدي، منطلقاً من تصوره لأطوار المصطلح، وأن التعبير بالصورة يعد أولى الخطوات في بناء المصطلح، ومثال ذلك قول قريش لعلقمة الفحل: ((عن حماد الراوية قال: كانت العرب تعرض أشعارها على قريش. فما قبلوه منها كان مقبولاً، وما ردوه منها كان مردوداً. فقَدِمَ عليهم علقمةُ بن عبدة، فأنشدهم قصيدته التي يقول فيها:

هَلْ ما عَلمتَ وما استُودعْتَ مكتومُ
أم حَبْلُها أَنْ نأتكَ اليومَ مَصرُومُ

فقالوا هذه سِمطُ الدَّهرِ ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم:

طَحا بكَ قلبٌ في الحِسَان طروبُ
بُعَيْد الشَّبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

فقالوا هاتانِ سِمطا الدهر))

فسمط الدهر صورة، لأن السمط في اللغة السلك، وهو جزء من القلادة، والعرب تعبر عن الشيء بجزء منه، والدهر متزين بهذه القصيدة كأنه عروس للأيام والليالي؛ لتجديد المتعة بهذه القصيدة الخالدة خلود الدهر، ومعلوم أن الزمان يذكر والمراد أهله عند العرب كما يذكر المكان والمراد أهله. فثمة حكم بمتعة القصيدة وزينتها وجمالها وخلودها.

ولكل قصيدة منهما شخصيتها، لكنهما متفقتان بالزينة والمتعة والجمال، وتباهي الدهر بهما معاً، والأولى كانت أشد حضوراً فقد بقيت حاضرة في أذهان قريش بعد عام تصرم، وبقيت حاضرة لقولهم (هاتان) في إشارة إلى القصيدتين ما لم يكونوا استعادوه إنشادَ الأولى مرة أخرى. والدهر قد رأى ما قدَّمَهُ الأوائل، ويرى ما قدمه أبناء زمانه، ولشدة اعتداده بهما سيبقيهما زينة له، وأنتم تنظرون. ويمكنك أن تضيف إلى ذلك مؤيداً الشيخَ الفيصل بمقولات البدوي ربيعة بن حذار الأسدي:

((أما عمرو فشعره برود يمنية تنشر وتطوى. وأما أنت يا زبرقان فكأنك رجل أتى جزوراً قد نحرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغير ذلك.

وقال لقيط في خبره، قال له ربيعة بن حذار: وأما أنت يا زبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولم يترك نيئاً فينتفع به. وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من نار الله يلقيها على من يشاء. وأما أنت يا علقمة بن عبدة فشعرك كمزادة أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء))

فصورة شعر عمرو بن الأهتم برود يمانية أي كعباءات اليمن، والعباءة تنشر

للمناسبات، وتطوى بانتهائها كما يفعل شيوخ القبائل. فهل أراد أن شعره شعر مناسبات؟ وهل أراد زركشة الشعر أو أراد شفافيته عن مضمونه كالعباءة التي تشف عما بعدها من ثياب لابسها؟!! تلك صورة تناولت شكل الشعر وزخرفته ومادته معنى ومبنى.

والحكم على شعر الزبرقان بروايتين: الأولى أنه شعر يجمع أطايب الجزور (الناقة أو البقرة) إلى ما دون ذلك من خبيث اللحم، والخبيث إذا جُمعَ بالطيب غلبه وأفسده. واختيار اللحم إشارة إلى موقدة الإبداع التي ضعفت فلم تنتج لحماً ناضجاً تقبله النفس، ولا تعافه. فحضور الذوق في تناول الشعر واستساغته أمر لا مفر منه، وشعر الزبرقان: قول موزون مقفى ذو معنى كما يقول قدامة في تعريف الشعر، ومع ذلك كان مردوداً لطعمه وفساده من غير هذه الجهات. فليست أركان الشعر كافية لقبول النقاد أو المتلقين له (علماً أن ربيعة كان كاهنَ نجد من العرب العارف بأعرافهم في الشعر والعادات والتقاليد الشعرية أيضاً).

وظل اللحم والتذوق في الرواية الثانية حاضراً في قوله: (وأما أنت يا زبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولم يترك نيئاً فينتفع به.) فالنضج أحضر موقدة الإبداع، فأومأ إلى أن الزبرقان لا يترك تجربته تأخذ حقها من نار الإبداع؛ لتنضج، وتستسيغها الأنفس، وتُقبل عليها بيد أنه يتعجل في إخراج شعره من الموقدة فلم يتركه يختمر ثم ينضج.

وأشعار المخبل كالشهب أو النيازك المتساقطة من السماء، فمن أصابه هجاؤه احترق، ومن أصابه مديحه سما وارتفع، والعبارة ثناء ومدح لشعره في هذه الرواية، ولما عدت إلى أشعاره لاختبار هذا الحكم لم أجد له مصداقية، فدلني ذلك أن العبارة منحولة لربيعة بن حذار الأسدي، فهي رواية تمجد شعر المخبل مبناها الانتصار لشخصه لا لشعره، ولو أراد التوكيد ضرب لنا أمثلة من شعره تؤكد قوله، لكنه جعل عبارته غامضة مغمضة العينين، وهي تعطيه فوق حقه كثيراً.

تقابلها رواية أخرى مبناها تحقير ميسم الشعر عند المخبل تقول: ((**وأما أنت يا مخبل فإنك قصرت عن الجاهلية ولم تدرك الإسلام**)) فجعل شعره مقصراً في تحقيق طوابع الشعر الجاهلي وسماته، ولم يحقق شيئاً من الشعر الإسلامي المحيط به. وهي عبارة تجعله في الحضيض، منبعثة منها رائحة الكراهية لشخصه وشعره معاً، وهي في ظني منحولة أيضاً على لسان ربيعة بن حذار.

وأعدل الروايات مقولته في الرواية الأخرى وأقربها إلى الإصابة: ((**وأما أنت يا مخبّل فإنّ شعرك قصّر عن شعرهم، وارتفع عن شعر غيرهم**)) فجعل شعره أدنى

من أشعار الشعراء الذين سمع لهم في الرحلة الخلوية: الزبرقان، وعمرو وعلقمة الفحل، ورفع أشعاره فوق أشعار غيرهم ممن هو دونهم.

والتفت إلى علقمة الفحل فقال له: ((**وأما أنت يا علقمة فإن شعرك كمزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شيء.**)) فوجد شعره محكمةً صنعتُه كأنه قربة ماء، تضم الماء رمز الحياة فيها، وتمنعه من الاختلاط بغيره، ولا يمكن الوصول إلى مضمونه من غير فوهته، أو تمزيقه، فمداخله محددة.

وإذا أردنا الكشف عن طريقته في ترتيب أحكامه وجدناه حكم على شاعرين حكماً سلبياً أحدهما الزبرقان الذي خلط أطايب الشعر وخبائثه معاً، أو من يتعجل بإظهار شعره قبل اختماره. والآخر المخبل وقد قصر شعره عن شعر أهل المجلس، وارتفع عن أشعار غيرهم، وإن شئت الذي قصرت خطاه عن اللحاق بمياسم أهل الجاهلية ومياسم أهل الإسلام في أشعارهم.

وأعطى شاعرين من شعراء المجلس حكمين إيجابيين هما عمرو بن الأهتم الذي جعل أشعاره زينة لكنه شعر مناسبات ينشر في المناسبة، ويطوى بعدها. ولو كان ذلك يحمل غمزاً في الشعر بيد أن جمال العباءة وشفافيتها وزركشتها وجمالها بانعكاس الضوء عليها. فكان التركيز على ظاهر مبنى الشعر أكثر من مضمونه.

وأعطى شعر علقمة الفحل حكماً إيجابياً يتناول مبنى الشعر وفحواه، وربطه بالماء والقربة، فكانت صنعة القربة لمبنى الشعر، وكان ماء القربة دالاً على موضوعات الشعر الحية.

فإذا كان ربيعة بن حذار يرتب الشعراء من الأدنى إلى الأعلى، ولم يكن تصرفاً من الراوي فإن الزبرقان أدناهم منزلة، والمخبل أوسطهم منزلة وأعلاهم علقمة إن لم يكن نظيراً لابن الأهتم الذي شف شعره عن روحه ومحتواه على توهجه في عيون الناظرين إليه.

كان التعبير بالصورة نيابة عن المصطلح النقدي في غيابه، وكان ذلك طبيعياً؛ لأن لغة النقد من جنس لغة الأدب فنية مثله.

الوراقة:

1. أشعار الشعراء الستة الجاهليين، اختيار يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري (415 -476هـ) بيروت -دار الآفاق الجديدة، ط، 1979م
2. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، ومحمود محمد غنيم، بإشراف: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت -مؤسسة جمال عبد الناصر [طبعة مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية] [د.ت]
3. ديوان علقمة الفحل، بشرح الأعلم الشنتمري، حققه: لطفي الصقال، ودرية الخطيب، حلب -دار الكتاب العربي، ط1، 1389هـ -1969م
4. المصون في الأدب، المصون في الأدب، لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري (المتوفى: 382هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1984م
5. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي (963هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت - عالم الكتب، 367هـ -947م
6. الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، لأبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (-384هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة -دار الفكر العربي، 1385هـ - 1965م
7. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، لابن سعيد الأندلسي (610 -685هـ) تحقيق: د. نصرت عبد الرحمن، عَمَّان - مكتبة الأقصى، 1982م
8. نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق: د. محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت -دار الكتب العلمية، [د.ت]

الهوامش:

1 ـ المصون في الأدب: 6.
2 - ديوان علقمة الفحل: 50.
3 - ديوان علقمة الفحل: 33.
4 ـ الأغاني: 21/ 201.
5 - الأغاني: 13/ 197 -198.
6 - انظر: نقد الشعر: 64.
7 - انظر: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب 1/ 398.
8 - معاهد التنصيص: 1/ 178.
9 - الموشح: 96.
10 - أشعار الشعراء الستة الجاهليين: 1/ 141.

من أدب الاغتراب ..

د. سليمان الصدي : تفاصيل برائحة الشوق..

أ.سعد الله بركات

مطالع 2005، وعشية توجّهنا في أول زيارة للولايات المتحدة، تكرّم صديق مشترك بتعارفنا، كانت لفتة جميلة، حفّزتها كنية تشي بجذور تعود إلى بلدتنا،، صدد،،. بل كانت شرارة تواصل فصداقة كرّسها د. سليمان الصدي والصديق الشاعر توفيق أحمد، في سهرة مع المطرب العراقي سعدون جابر، لأستعيد شدوه على ضفاف الفرات في بغداد صيف 1979.

ويحضرني لقاء ثالث خلال الملتقى الدولي للتضامن مع الجولان حيث جاء سليمان خصيصاً للمشاركة فيه، حتى إذا قادتنا الغربة عبر المحيط، كان التهاتف متنفّساً، كما مع غيره من أصدقاء، على تباعد إقامتنا .. سليمان يأسرك بابتسامته، ولهفته بما فيهما من فيض مودّة محفّزة على صداقة مديدة .

لهفة لمستها حين حدّثني عن نتاج يراعه، قبل أن اقرأه ويفوح من ثنايا سطوره، عبق توق، لمرابع وذكريات، عبق يتضوع مباشرة من عناوينها الرئيسة والفرعية، رائحة التفاصيل، ـ رواية [دار كنانة - 2019] عدة طبعات، /تراتيل لعينيك ..خواطر اغترابيّة، ـ شعر [دار الينابيع 2012] /و، مكان تحت الشمس، ، - سيرة ذاتية ...

ثمّ رواية بالإنكليزية، المريض بالغرفة 12، و، من أوراق الحياة، مقالات في الحبّ وتحدّيات الرجاء - نصوص [2015]، و، أيام في هوليوود [2023].

خمسة كتب حتى الآن أنجزها الأديب د. سليمان، وعلى تنوّع أجناسها الأدبية، تنضوي في، أدب الاغتراب، و قاسمها المشترك تجذّر ووفاء، كيف لا ! وهو المكنّى ب، الصدّي، دلالة على متانة تعلق بجذور جدّه في بلدة، ، صدد، .

هو الذي عاش ((الغربة ألماً ومعاناة، وتحديّات ..)) لنحو 5 عقود، يرى أنّ ((الإبداع الحقيقي لا ينجم إلا عن المعاناة، وفي الغربة نعرف قيمة الوطن وتصير محبتنا له أشبه بالتصوف، ..أغادر سورية، لكن سورية لا تغادرني، ...سورية السياج الذي يسوّر قلبي أينما اتجهت، والعشق الذي يسري بدمي، هي الهواء الذي أستنشقه، ليتني أمضي بقية حياتي، تحت أغصان الزيتون الوارفة في بلدتي الوديعة إزرع)) .

مع ذلك لا يعدّ هذا، الصددي، نفسه أديباً: ((لا أدعي أني شاعر، أو روائي، أنا هاو للشعر وعاشق للأدب، وقد حاولت إفراغ شحناتي العاطفية على الورق...)) متأثّر بجبران خليل جبران، وسيرة حياته، تبكيه، قول يشي بعفوية ماخطّه قلمه السبعيني المعتّق كما بتواضعه، وهو الصحفي ونائب نقيب الصحفيين العرب الأميركيين في لوس أنجلس، وعضو في اللجنة العربية الأميركية للدفاع عن سورية

من بلدة إزرع، الحورانيّة، وبعد حصوله على الثانوية العامة، اختار سليمان، مطالع السبعينات السفر لتحقيق طموحه في أن يكون مخرجاً أو صحفياً، استقر به المقام في هوليوود حيث درس الصحافة والإعلام وتابع في الدراسات العليا، قبل أن ينشر مقالاته في السياسة والفكر والأدب في صحف اغترابية منها:، الانتشار العربي و، ،الأخبار، ومجلة بانوراما.

وأمّا رواية رائحة التفاصيل، فتتتمي حسب الشاعر الناقد محمد خالد الخضر: ((إلى أدب السيرة الذاتية في إطار رمزي ممزوج بحب الوطن، ضمن أماكن وأحداث واقعية ترصد جانباً من الحرب الإرهابية على سورية، وتتألف من أجزاء متراكبة نسقياً، .... في سياق واحد، رغم أنّها تبدو منقطعة ومتداخلة)) بآن معاً.

على مدى 206 صفحات، وعبر 6 أقسام، تتوزّع على 40 جزءاً، يأخذنا الكاتب، وبتفصيل إلى عوالم الاغتراب وجزئياته، ألا تقرأ الرسالة من عنوانها، رائحة التفاصيل، على ما فيها من مكابدة شوق، وشهامة أصدقاء، وما عاناه من نساء مخادعات أو مخلصات، وما صادفه من حسن مفاجآت، قادته لنجاحات، و تجاوز تحديات أو خيبات، لكن بإسلوب المتمكّن، يردفه بلغة شاعرية مرهفة.

القسم الأول، توالت أحداثه في نحو نصف الرواية، وحده جاء بعنوان افتراضي لمتخيّل «مملكة جزر النخيل»، حيث سردية بداية حياة، الراوي عزّام العبد الله، سوري محبّ لبلده، و قريته الخلابة، يعاني من ظلامة أب بخيل، غلبت حنان أمّه، لا ترحل يا حبّة قلبي، ص 14 وتشجيعها له، ما حفّزه على الخلاص، والسفر إلى مملكة الجزر وإن بصحبة أبيه.

سجنه لكونه شيوعياً...ص 12، ومعاناة العمل ...، زاداه توقاً لأمه ووطنه ..تراه يسهب بوصف قريته، بإسلوب ماتع، قرية.. ألقت على الكون مفاتنها، ....لا فجر إلاّ من نور عينيك ..ص18 -19 ..، ،

خلاصه جاء من المدير، غيّر له عمله بعيداً عن ظلم والده، فراح ينشر مقالاته عن، بناء المستقبل المشرق، طامحاً بمكان على الشمس ص30، اتهم بالتعاون مع السلطة ص38، قبل أن يقع في حبّ، ميري، كيف اجتاحني إعصار عشقك؟ ص44 .. يصمد خلال التحقيق، وهو يحنّ إلى شآمه مناجياً: من جرح بجرح الغربة كيف يشفى من حبّه؟ ص46، بينما: ((دموع أمّ روت شوارع القرية وغسلت أرصفتها حين عرفت بحكم الإعدام)) ص 60 - 62، وفي زنزانته يكتب: ((كفى مجداً للحرية، أن أموت في العطر وفي سورية)) ص 63، ها هو يستعيد حريته ليلاقي والديه وتتعانق الدموع: ((وقد ترسّخت [قناعته] أن من يولدون في العواصف، لا يخشون هبوب الرياح)) ص82، سورية، عنوان القسم 2، واضح كما بقية العناوين، وفيه نواكب حكاية هجرة الراوي إلى أمريكا، بعدما تجاوز تحدّي امتحان الثانوية: ((سئل المستحيل أين تقيم ؟؟ فقال : في أحلام العاجزين، ..ولن أكون عاجزاً)) ص84 حبه لسعاد، أو لمياء، لم يمنعاه من السفر، هرباً من ظلم أبيه أيضاً، طامحاً بثروة وعلم، تجاوز معاناة الفيزا 90 -92 وحلّق مع، ،حلمه، ،عبر المحيط .

أما في القسم 3 "الولايات المتحدة الأميركية"، يتواصل السرد لحكايات وشخصيات تخدم حلم، عزام، سيدة مسنّة وابنتها تتعهدان برعايته ص94، ثم أصدقاء قدامى، مدرّسة اللغة، هيلين، تحابّا بصدق: ((كان جسدها كالمرجل، تجيش فيه الحياة.... كنت أصبو.. أكبت.. فيزيدني الكبت قوة)). ص 98، هدّد بالترحيل، لولا تفهّم، أدريان تيرنر، مرة وزواجه من، ،هيلين، مرة ثانية، فدرس، الإعلام في هوليوود، وفي ذهنه قولة عمه، العمل.. العمل..، وقولة خاله، ستفشل... ستفشل، ما يزيده عزماً. تخلي زوجته عنه، أعاده إلى شبح الترحيل ثانية وثالثة ص105 -107، لولا زواجه من روث، ثم تحديه لها ورهانه على النجاح، وإن أذعن لتسلّطها، ولشروطها بالانفصال ص108 - 110.

الصدفة الأهم، قفزت **في القسم 4** (مارلا) حين جاءت إلى مكتب، عزام، العقاري، وهي سيدة أعمال، تدعمه باستثمارات مشتركة، تحفّزه على الدراسة، فكانت أجمل حبّ : ((وحدها أنصفتني، كم كنت ثريّاً بها، خذيني مني ولا تأخذني منك، ...)). ص113، ما يوضح الخط الأنثوي أكثر، مع ضغط طليقته، روث، لتقاسمه موارده .! فمع، مارلا: ((زاد الأمل توقداً.. كانت إعصاراً يأخذني)) ...ص115 حتى إذا شدّ الرحال إلى جنوب أفريقيا، مغامراً لتوثيق انتهاكات الفصل العنصري، تلبسها حبّه فطلقت زوجها، ص128، لكنها لم تتزوج، عزاماً، لرفضها من أمه، قبل أن تتهمه بالإرهاب وتستولي على ثروته، بالتعاون مع جولي، التي رفضها، لكن قيض له رجل دين ومحام أنقذاه 137 – 146

حين جاء دمشق باحثاً عن عروس التقى، ،مريم، تزوجته خدعة فتركها...130 - 136

مغامرته الإفريقية، فشلت، جرّد مما أنجز لرسالة تخرّجه، فاستبدلها بفيلم، د. ديز، ص 125 جراح المخ وما عاناه في أمريكا لسواد بشرته، لتنشأ بينهما صداقة فتعاون مادي ..

القسم 5 ، ،أمل، يتواصل تفعيل الحس الأنثوي بمساحة واسعة، د. أمل متزوجة ترمي شباكها نحوه: ((سألت قلبي عن أغلى أمانيه... فأورق شعري... واخضرّت قوافيه)) ص 147، تركت زوجها لتسانده في محنة سجنه حتى تبرئته، وضد مكائد جولي ومارلا، قبل محاولتها الانتحار، ..فظلّ وفياً لها.. ص 189 -190: ((كانت أمل ملاكاً أرسله الله لي. كانت ...النور الذي بدّد ظلمة عمري)) ص 166. -169، صار إعلامياً مشهوراً بالدفاع عن قضية الجولان، وقد هجر الغزل بغير دمشق: ((شآم يا قمري شامة في خد الدهر أسميتك قنديل روحي ص)) 174\175 قبل أن تخدعه فريال ص184

القسم الأخير من الرواية جاء بعنوان "العودة" مكرّساً مفهوم الانتماء والشوق و و... وقد هجر عزام، غربته عائداً ليستقرّ في الوطن الأم، رغم ما لاقاه من معاناة وحسد، لكنّه عثر على حبيبته، في خريف العمر، ليمضيا: ((معاً إلى الشمس)) ص206.

أكثر من ندوة نقدية عقدت لقراءتها، في سورية والعراق، وقُدّمت حولها دراسات نقدية عديدة جُمعت في كتابين، جماليات النص الروائي، المرجع والمتخيّل، لمجموعة مؤلفين، إعداد وتقديم د. علي الصليبي المرسومي - أربيل، و..... كما تناولها النقاد قراءة وتمحيصاً.

الناقد محمد الخضر، وصف الصدي بأنه :((يمتلك أسس بناء الرواية، وعندما ذاق الغربة، رأى أن الوطن أهم ما في الوجود، لتدور كتاباته في عالم يخلط الواقع والغربة والوجدان.... وهو يكتب في مختلف الأجناس الأدبية.. متمسكاً بالبنيات الفنية، والانتماء إلى وطنه.. مع حرصه على الواقعية والعاطفة الصادقة))، منوّهاً بقوله إنّ: ((الكتابة ناجمة عن المعاناة، وحين أرى حجم معاناة بلدي، أشعر بفيض يتدفق في داخلي، يحتاج إلى أن أفرغه على الورق، ...وحين أكتب يكون القارئ حاضراً في ذهني، وأرغب أن يشاركني رؤيتي وهواجسي)) ولذا تراه متماهياً مع الراوي عزام العبدالله ((الذي

يشبهني كثيراً بطموحه وجموحه، بإنسانيته وفيض عاطفته، وعشقه لأرضه)) .

ثمّ أنه : ((يعوّل على النقد الأكاديمي القائم على رؤية ما سكت عنه الأديب، لا ما قاله وهو نقد يغني النص الأدبي وأراه حالة إبداعية موازية لإبداع النص الأصلي فيغنيه، ويكشف خباياه))، وصولاً لـ((غاية الأديب في بناء فكر المجتمع وتصحيح مساره)) كما يؤكد في حديثه ل، ديوان العرب، في ناحية عينكاوا - أربيل، استضاف المركز الأكاديمي الاجتماعي وبالتنسيق مع مجموعة المجلس الثقافي المفتوح، جلسة حوارية أدبية، أدارها د. بهنام عطاالله وقدّم فيها أ. د. محمد صابر عبيد قراءة نقدية لرواية الصدّي، رائحة التفاصيل، تناول فيها العتبة النصية، وعلاقتها بالسيرة الذاتية، والمتخيل الروائي، وحلل شخصياتها وخاصة، البطل المحوري عزام العبد الله، وعلاقته بحياة الكاتب، فيما تحدّث الأكاديمي عماد متي، عن المركز الأكاديمي الاجتماعي، وم. ياسين سنجاري، عن المجلس الثقافي المفتوح كما عرض د. سليمان تجربته الأدبية والروائية، الناقد والباحث بطرس نباتي، عدّ الرواية :((محاولة سردية لسيرة ذاتية، فيها أحداث واقعية وخيالية، تتناول حياة إنسان مناضل ومضح)) .

في دار الأسد للثقافة في اللاذقية، عقدت ندوة توقيع كتاب الروائي الصدي، أدارها الإعلامي والشاعر توفيق أحمد، ووجد د. نضال الصالح الرواية: ((تمتلك الكثير من الميزات نظراً لكونها الرواية الأولى للكاتب، وقد فصّل الحديث في وحداتها السردية، وفضاءيها المكاني والزماني)) بينما نوهّت د. سمر الديوب بشعرية الكتابة الروائية في، رائحة التفاصيل، ((متمثلة في الانزياح والإيحاء، والبعد العجائبي والتقابل والتضاد، فضلاً عن تقاطعات مع أدب المتصوفة وأدب جبران خليل جبران.... مع وجود علاقة بين هذه الرواية وحكايات ألف ليلة وليلة، وفن الخبر في السرد التراثي)) كما نوّه د. حسن حميد ب ((شعور انتابه حين قرأ الرواية للمرة الأولى، وهي تتناول الجوانب الوجدانية والإنسانية بأسلوب شاعري رقيق)).

تراتيل اغترابية ....

مبكّرا عبرت موهبة، سليمان، الإبداعية، في سن ١٤ كتب قصيدة لأخته، سماها، تراتيل لعينيك، وتحت هذا العنوان جاءت باكورة أعماله الأدبية المطبوعة، وقد جمع فيها مختارات من شعره وخواطر اغترابية، وقد أهدى: ((هذه القصائد المنسرحة كقطعان الريح.. إلى أيقونتي)) روحه، نانسي ولارا، وإلى أمّه ((الطاعنة في شموخها)) .

خلال 73 صفحة، يطالعنا الديوان ب20 قصيدة، قدّم لها، عبد الرزاق عبد الواحد، بما يختزل ويعبّر: ((بين غربة الروح وغربة الجسد...، وبهما معاً،

ترفرف أجنحة هذه النصوص منكسرة.. مكابرة.. مغالبة أوجاعها، في حرائق حبّ.....، يستعين على إطفاء نيران وجده بمياه مشتعلة!.... هذا هو سفر الياسمين... جرح فيه الكثير من الكبرياء.. غربة فيها الكثير من الإنتماء... وهو نثر فيه الكثير من الشعر..)). ص3 -6

وعليه، اعتمد شاعرنا القصيدة، النثرية، وأبحر في شعر التفعيلة، لكنّ قافيته تطلّ عفوية، بين حين وحين، دونما تكلّف وعلى مهل، منسربة في ثنايا الفكرة والتعبير، لتضبط إيقاعا وجرساً موسيقياً رفيفاً وإن نأى بنفسه عن، الفراهيدي، وعروضه.

د. سمر الديوب، وجدت في تراتيل، الصدي: ((صلاة عاشق. أن يرفع التراتيل لعيني المرأة/ الحبيبة، الأم، الابنة، الأرض. فتوحي .. بجو ديني مهيب، أما العينان اللتان ترفع التراتيل إليهما، فهما مستودع أسرار الإنسان – كما يرى علماء النفس .. - إذ تستودع الحبيبة في العينين جمالها، والأم حنانها، والابنة براءتها، والشام سحرها...))

ثمة ثنائية تكاملية في ديوان الشاعر وحياته، بين الوطن والمرأة، يراهما من خلال بعضهما ..تضيف د. الديوب، وتنوّه بقصيدة حوران ص 34 :

حوران! بعدكِ جَفَّ العمرُ
طحنتِ الغربةُ روحي
.....
لم يبقَ مني إلا الحزنُ
لم يبقَ إلا شِعْري فيك .....

ومن جماليات شاعرنا، دهشة ومجاز، موسيقا ولمحات صوفية، توقفت عندها د. الديوب :

1 - دمشقُ يا معجزةَ الخالق
نسجها على مهلٍ...
فكانت درّةَ الختامِ....ص 72

2 - ستأتي التي ستملِكُ مساحاتِ حبّي
التي ستتَّخِذُ نوارسُ عينيها
من شواطئ مرساها،

3 - أنا مشتاقٌ إليكِ
أسوقُ الريحَ أمامي
ولن أقف إلا في محطات ذراعيك
.....
أسافرُ في أوردَتِك
وأشتهي الغرقَ في بحيرَتي عينيكِ، ص21

4 - سافرت حتى محوتُ المرافئ
مرحباً دمشق عليك سلامي ...
يا عطر المواسمِ يا وعدي يا غرامي
لا أريد قصوراً... يكفيني بحوران خيامي، ص 68

5 - إن لم يكن شلالُ شَعْرِكِ بحري
وشفتاكِ جزيرتي
فلا كنتُ، ولا كانت
مساحةُ عشقي لبحارِ عينيك
ولا ثارتِ النارُ على شفتي
اشتعالاً بحنيني، ص 24

في ندوة مركز ثقافي المزة حول الديوان، تحدث العلامة الشيخ حسين شحادة مدير منتدى المعارف لحوار الأديان من لبنان: ((استطاع شاعرنا أن يتحدى غربته، وفي تراتيل سليمان يبدأ الوطن حين تبدأ الحبيبة والحبيبة الفاتنة هي سورية)) .

د. محمود حيدر من لبنان وصف إبداع، الصدي، في، تراتيل لعينيك، بـ: ((حالة وجودية عبّر عنها الشاعر بلغة وجدانية)) .

د. أمل نصير من جامعة اليرموك - الأردن توقّفت عند قضية الشاعر الإنسانية: ((وهي لديه نوعان : اغتراب جسدي عانى منه الشاعر من حنين لأهله ووطنه، واغتراب نفسي، ظهر في اهتمام صاحب، سفر الياسمين، بالقضية الفلسطينية والعراق)) .

تراه يندبه :

آه فلسطين، يا أرضَ الأنبياء
فيكِ يُحْتَضَرُ الوردُ ولكنه لا يموت
فيك تحزنُ القوافي
.....
تشتاقين إلى صباحٍ
لم يأتِ بعدُ ولكنه سيأتي
في انتظارِ زغرودةِ النَّصرِ ، ،ص 42
كما يبكي بغداد حين أظلمت :
بكيتك بغداد، بكتك جراحاتي
بكاك الغيم والمطر وإله السماوات ..
حين أظلمت يا بغداد ....شققت الموج بآهاتي ..، ص 63

لا تكاد الشام تغيب عن قصائد المجموعة، حتى يستحضرها بغزل الأمكنة:

يا شام، يا عبق التاريخ ومنبت الأديان..
....
يا شام سقيت من كاسك كل عاشق ...
كسرت بلّور الوقت ...امتشقت السنان، ص 53
كيف لا! وقد لفّه، ،ضياع، ص60 :
جرّدني من كل شيء
لكن نسوا أن يأخذوك مني يا وطني
أتيتك. شاكياً شجني ..
هل تقبلني عائداً إليك....أزرع الشمس ..
أشتمّ رائحة التراب وأنحني ...
من أوراق الحياة ..

العنوان الفرعي الذي أراده د. الصدي لهذا المنجز، مقالات في الحب وتحديات الرجاء، يدلنا على مضمونه، وقاسمه المشترك مع منجزيه الروائي الشعري، شوق ومعاناة، وقد طرح كما أشار في المقدمة، أسئلة ترسم إجاباتها معاني الأوراق.... بدلالة منهجها ومنطلقاتها.. ص 3 تاركاً للقارئ دهشة الاكتشاف.

توزعت المقالات على 4 أقسام في 223 صفحة، أخذت الأوراق السياسية أكثرها (125 صفحة)، ثمّ الفكرية، فالأوراق الوجدانية والغزلية، تراه يلج فن المقال من بابه العريض، مسلحاً بملكة فكرية لغوية

وشاعرية، وبحس وطني، وهو ينثر قصصه ورسائله على نحو منطقي مقنع، وبطريقة فنية جميلة.

من، سياسة الذئب والحمل، ص4 إلى، وانقلب السحر على الساحر، ص 5، وردة شامية لغزة، ص8، ،إلى نيسان السلام، ص 10 حين، تتفجر ينابيع الحب الجمال.... يطلّ القمر بحلة بهية... فيغمر قلوب العشاق بكثير من الحب..، وهو يرنّم، لفصح وطني..، ص

13 وفاح ياسمين الشام ص18، بمناسبة زيارة الرئيس السوري لأمريكا اللاتينية.

تراه، يمر على، ،اليمن الذي كان سعيداً، ص21 قبل أن يتساءل، ما سرّها الشام؟، ص24

سرّ الشام في صمودها في وجه الزمن... [والمحن]..لم أجد مثل قلبي يطير ويرتجف.. كلّما ذكر اسمك يا شآمي، أما العزّف، أوله دمشق، ص 49.

يعرّج على القدس، مصر والصومال، فإلى أحفاد عمر المختار، ص36، قبل أن يفنّد، سياسة تركيا، 38 + 71، +86 وخريف أردوغان ..وقبحه، ص 97 + 122 ليحلل، الأزمة السورية، فيراها، - وإن من بعيد - نتاج الربيع العربي كما في تونس وغيرها ..ص59، فيصفه ب، ،الشتاء العربي، ص73 أو، انفلونزا الثورات، ص 91.

في أوراقه الوجدانية، يقلّب، د. الصدي، صفحات ذاكرته، ليؤجج مشاعره وتوقه لحبيبته، الشامية، من مرافئ الذاكرة، ص131 وهو متيّم بالشآم، توءم روحه ..ونبض فؤاده، ص136

ولئن كشف وداع أمّه، ضعفه أمام دموعها ص 139، فقد أثار أشجاني، أنا الذي أخفيت دمعي عن أم سعد اللّه وقد قاربت المئة، وكان الوداع الأخير... تراني أتوقف بشجن عند، حزن عصفور مهاجر، ص155، وطني يا وجودي .. ووجعي الأكبر. شآمي يا أرض الطهر والنقاء.. لأنك حبيبتي أستحق الحياة.

أما أوراقه الفكرية، فتناولت الإنسان والزمن الزواج، ص 160 و163 قبل أن يقارن بين، الحب العذري والجسدي 176، ثم يكتب في ذكرى رحيل شاعر الياسمين، وعن جبران ذلك النهر الخالد، ص 170 فالمعري، اللغز المحيّر 183، ثم أم كلثوم صوت وحّد العرب، 185.

وفي، التربية والتدوير في الفكر العربي، يرى الأول يضع نفسه في خصومة مع الآخر، بينما الثاني، يراه مختلفاً ص188.

مسك الختام في أوراق الغزل، وما فيها من واقع أو أحلام ص 190+198 وخيال، وهو يناجي الروح، الشتات يا غاليتي هو شتات العقل.... حين ترحلين، تتغير كلّ الأشياء حولي، ص 195 الشمس أنت. القلب أنت ...نقشت اسمك في قلبي ونبضه حتى غدا في الغرام شعاراً، ص202 ..أحبك في قربك مني، وبعدك عني، وأشعر أني صرت منك وصرت منّي... ص204، وفي رسالة إلى حبيب مهاجر ص 208، من خلف المحيط تناديه: من خلال حبات المطر

التي تحكي كلّ حبة قصة حبّنا، وهو الحبيب الحاضر الغائب، 210، كم أشتاق إليك بعدد رمال الصحارى...، وهي تحلم أنّي أسافر معك كل يوم في رحلة تبدأ بشفتيك...، ص 215.

في ندوة نقدية مع توقيع الكتاب في اللاذقية تحدث د. خالد الأحمد أستاذ العلوم التربوية عن منشأ المؤلف وسيرته الذاتية موضحاً أن كتاب "من أوراق الحياة" ((هو مزيج من متنوع يختلط فيه الوجداني بالسياسي، وأن أكثر ما يميزه العفوية والصدق، والتأكيد على الانتماء للوطن والإنسان والأم والحبيبة)).

الناقد الدكتور وفيق سليطين أشار إلى ((تميز مقالات الكتاب بالحبّ الغامر ولمس من حرارة المباشرة في القول والكتابة نوعاً خاصاً من الأب)).

د. غسان غنيم أستاذ الأدب الحديث والمعاصر، رأى في الكتاب ((أوراقاً تسجل الحياة بطريقة تفيض بالوجدان.... حيث يقدم الكاتب قلبه فوق ورق أبيض... فيه الكثير من الحنين إلى تراب سورية وعبق حجارتها)).

ولفت غنيم إلى أن الكاتب في الأوراق الغزلية ((دمج بين شيئين هو الغزل بالحبيبة الوطن وبالوطن الحبيبة..... ودائماً تأتي بوصفها، الشآمية، ما يؤشر إلى أن حالة العشق لديه مشتركة بحالة الوطن وهذا ناتج عن واقع الاغتراب)).

بينما أدرجت الدكتورة سمر الديوب أستاذة الأدب العربي القديم، الكتاب ((ضمن أدب الاغتراب الذي يمثل التآخي الإسلامي المسيحي.... مبينة أن لغته كوتها نار الغربة، فهي لغة شفافة صادقة، هناك لغة شعرية لم تغب حتى عن المقالات السياسية، وهي ممتلئة بالمناحي الشعرية من الإيحاء إلى المفارقة إلى السجع إلى الترادف والتضاد)).

ولعلّ الكاتب – الشاعر يواصل الوفاء بما اختتم أوراقه، أنه سيكتب مجددا، فلا ينتهي عطاوه.

هوامش الراوية

سانا الثقافية، محمد الخضر 8 \9 و 12\11\2019

صدى مصر، يناير 13، 2022، محمد الخضر

- موقع تحت المجهر ندوة دار الثقافة - اللاذقية 51\10\2018

موقع اتحاد وطني كردستاني - 2019 -11 -19

الخميس 13 آب 2020. حوار لـ ديوان العرب - مريم علي جبة

هوامش تراتيل :

د. الديوب، 26\5\2012 مجلة كنعان الألكترونية

ندوة ثقافي المزة، موقع ازرع، ديسمبر 18، 2010

هوامش، أوراق الحياة.

ندوة اللاذقية ، مي قرحالي - سانا الثقافية 2015 -04 -06

قامة سنديان

الشاعر الذي ظلمه التاريخ:

مصطفى البابي الحلبي

أ. محمد إبراهيم العبد الله

الشاعر الذي ظلمه التاريخ: مصطفى البابي الحلبي

أ.محمد إبراهيم العبد الله
كاتب ومترجم من سورية

سأقدم في هذه الدراسة الموجزة، إضاءة على الشاعر مصطفى البابي الحلبي. وطالما ظلت المراجع شحيحة حول هذا الشاعر الفذ، فسوف أعتمد بشكل أساسي على المقدمة التي كتبها الشاعر مصطفى البدوي لديوانه الشعري الذي حمل اسمه "ديوان مصطفى البابي الحلبي" يقول الشاعر في مقدمة الكتاب: لقد حصلت على ديوان مصطفى البابي الحلبي من أحد المشايخ حين كنت أحضر نادياً ثقافياً في مدينة الباب، وقد كلفت بإلقاء محاضرة، فاخترت الحديث عن مصطفى البابي الحلبي، لا بدافع أنه من بلدتي وإنما لجمال شعره.

يجدر الإشارة، بادئ ذي بدء، إلى أن ثمة خلطاً يحدث بين الشاعر مصطفى البدوي، والشاعر مصطفى البابي الحلبي ، فالبعض يعتبرهما واحداً، والبعض الآخر يظن أنهما عاشا في فترة زمنية واحدة، هذا الخلط ناتج في الواقع عن شح المصادر، وقلة المراجع التي تتناول هذين الأديبين. وفي الحقيقة أن الشاعر مصطفى البدوي قدم دراسة وتحليلاً وشرحاً لديوان الشاعر مصطفى البابي الحلبي الذي عاش في القرن السابع عشر في حين أن الشاعر مصطفى البدوي عاش في القرن العشرين 1912 -1991 .

يقول مصطفى البدوي في مقدمة الكتاب: إن مصطفى البابي الحلبي 1612 - 1680 م صاحب أشهر مكتبة في الشرق الأوسط في مصر، وقليل من يعرفه في مدينة الباب. وقد شجعني بعض أصدقائي في مدينة الباب على دراسة هذا الشاعر، ومنهم رياض الرحمو؛ وهو رجل أعمال معروف من المدينة يقيم في دمشق ويرجع في نسبه إلى عائلة الشهابي التي ينتمي إليها أيضاً الشاعر مصطفى البابي الحلبي. ويضيف مصطفى البدوي أنني جمعت المصادر من المكتبة الظاهرية بدمشق، ومن دار الكتب الوطنية بحلب، وكانت المراجع قليلة، لكن وجدت ديوانه

المطبوع منذ مئة واثني عشر عاماً؛ أي في عام 1871 ومن خلال الديوان عرفت شيئاً عن سيرته الذاتية، وعرفت كذلك ترجمته من خلال أعلام النبلاء للشيخ راغب الطباخ. الديوان في معظمه قصائد مديح خص بها أساتذته وأصدقاءه، لكن هذه القصائد بعد المعاينة والتمحيص وجدت أنّها لا تتناول الممدوح فحسب، بل تتعداه إلى شتى الفنون الأخرى، ومديحه لم يكن تملقاً، فهو أي مصطفى البابي الحلبي يعد من الأغنياء أصحاب العقارات والبساتين في مدينة الباب، وقد تمنى مصطفى البدوي في مقدمة الكتاب أن يُسمى شارع أو مدرسة باسمه في المدينة، لكن هذا لم يحدث بحدود معرفتي.

يتحدث مصطفى البدوي عن الحياة الفكرية، والعقلية التي كانت سائدة في عصر الشاعر مصطفى البابي الحلبي، إذ يقول إن الحياة الفكرية كانت تقتصر على العلوم الشرعية في عصر الدولة العثمانية. أما العلوم القانونية والقضائية فقد تشكلت على أساس عسكري، وكانت جميع الهيئات القضائية والدينية تخضع لمفتي إستانبول باعتباره شيخ الإسلام.

ثم يتحدث مصطفى البدوي في مقدمة المجموعة الشعرية عن بلدة الباب، تلك البلدة التي ينتمي إليها الشاعران إذ تبعد عن مدينة حلب 40 كم. ويصف البلدة بأسلوب شاعري جميل. يقول: تلوح مئذنة جامع الشيخ عقيل عن بعد كأنها ترحب بك. تقع البلدة على سفح جبل الشيخ عقيل، وعلى سفح الجبل الشمالي يمتد وادي تيماء الذي ألهب خيال الشعراء لتزاحم أشجاره وكثافة أغصانها. وقد وصفه زين الدين (عمر بن الورد) بقوله:

إنّ وادي البابَ قد ذكرني
جنةَ المأوى فلله العجب
فيه دوحُ يحجبُ الشمسَ إذا
قال للنسمةِ جوزي بأدب
نهرُه إذا قابل الشمسَ ترى
فضة بيضاء في نهر ذهب

ويشير الكاتب كذلك في المقدمة إلى وجود ثلاث أقنية رومانية تتجمع في مصب واحد لتشكل نهر الذهب (للأسف هذه الأقنية الرومانية ظلت موجودة لعهد قريب، لكن تم الاعتداء عليها وردمها ولم يعد لها وجود اليوم)

وقد أسهب كذلك مصطفى البابي الحلبي بوصف نهر الذهب بموشح يتدفق رقة وجمالاً حيث يقول:

يا رعاه الله من واد وسيم
رقَّ فيه الماءُ واعتل النسيم
حيثما يممتَ روضٌ وغدير
وفِراشٌ متقنُ الوشي وثير.

يمضي الشاعر مصطفى البدوي مسهباً في مقدمة الديوان عن بلدة الباب، بل يتحدث عن أشياء لا علاقة لها بالديوان الذي عمل على شرحه وتحقيقه. فيذكر

لنا، على سبيل المثال، الأنشطة الزراعية التي يقوم بها سكان المدينة من زراعة، وتربية الماشية والجمال، ويتحدث عن آثارها، فيذكر الجامع الكبير، ومقام الشيخ (جوشن) وعن التل الأثري الذي يقع شمال المدينة، تل بطنان، وعن بعض أعلام بلدة الباب في العصر الحديث أمثال الشيخ عبد القادر الطرابيشي، والشيخ مصطفى الأبو زلام، والشيخ سعيد المسعود، والشيخ أحمد النعساني الذي لا يزال حتى اليوم خطيب وإمام جامع أهل بدر في حي الفرقان بحلب. والشيخ حمام، والشيخ صادق الغزال، وجميع هؤلاء من خريجي الأزهر الشريف. يتحدث عن الزعيم عبد القادر الرحمو الذي ناضل ضد الاستعمار الفرنسي إلى جانب رفاقه أمثال سعدالله الجابري وابراهيم هنانو.

أراد الشاعر مصطفى البدوي أن يقدم صورة متكاملة عن بلدة الباب التي ينتمي إليها هو والشاعر مصطفى البابي الحلبي، وأرى أنه في ذكره لأعلامها ورجالاتها وموقعها وجمال سهلها إنما يريد أن يوثق معلومات وذكريات لطالما كانت مختزنة في ذاكرته، خاصة أن هذه المقدمة جاءت في الأساس – كما أسلفت - محاضرة ألقاها في المركز الثقافي بالباب عام 1983.

ثم ينتقل الكاتب ليحدثنا عن مصطفى البابي الحلبي معتمداً في ذلك على كتاب "أعلام النبلاء" للشيخ راغب الطباخ فيقول: هو مصطفى بن عبد الملك ، وقيل عثمان البابي الحلبي الأديب المتمكن من المعارف، وكان من أجلِّ فضلاء الدهر. فقد أخذ العلوم من أجلّهم الشيخ أبو الجود البتروني والشيخ أبو الوفا العرضي، والملا إبراهيم الكردي وغيرهِم. ويعود مصطفى البابي الحلبي في نسبه إلى الأسرة الشهابية التي سكنت الباب منذ أكثر من أربعمئة سنة. دخل دمشق بصحبة ابن الحسام قاضي القضاة سنة 1051 هجري، وكان في الثلاثين من العمر، وصحبة قاضي القضاة تدلُّ على علوِّ مرتبة الشاعر الاجتماعية، وطولِ باعه في فن الشعر. ومن تناولَ سيرتَه الذاتية من أبناء عائلته يذكرون أنه كان ثرياً يمتلك الأراضي والبساتين ويروون أنّه رصف شارعاً قصيراً بالبلاط يمتد من داره إلى الحمام العام كي لا يتسخ حذاء زوجته بالطين في أيام الشتاء.

في أثناء إقامته في دمشق اكتسب مصطفى البابي الحلبي الكثير من الأصدقاء، وتعرّف إلى الكثير من علمائها أمثال نجم الغزي صاحب المؤلفات الكثيرة الذي كانت صلتُه بالولاة العثمانيين قوية. وتعرف كذلك إلى الشيخ عبد الرحمن العمادي المشهور بسعة العلم وغزارة المعرفة. وقد أمضى فترة طويلة في دمشق لكن حنينه إلى مدينة الباب لا يفارقه أبداً وهذا ما نجده في الكثير من قصائده. يقول في إحداها:

أجيرتُنـــا تلقـــاءَ جوشـــن أنّـــه
فـــراقُ اضـــطرارٍ لا فـــراقَ تعمـــدِ

وحين أتم دراسته في دمشق عاد إلى بلدته الباب وأخذ يعد نفسه للسفر إلى إستانبول.

في إستانبول جابه الشاعر مصطفى البابي الحلبي كثيراً من المصاعب، فحياة الطالب الذي يبعد عن أهله آلاف الأميال لا تخلو من المتاعب. انتسب إلى مدرسة يتخرج فيها القضاة بعد دراسة تستمر لمدة سبع سنوات ثم يقدمون فحصاً أمام قاضي القضاة فإن أجازهم يكون من الناجحين وإن رسبوا فأمرهم إلى الله.

اجتاز الشاعر الامتحان بتفوق، وناضل نضالاً مريراً للوصول إلى مرتبة الولاة، وفي غمار ذلك النضال ضج به الحنين إلى متارف عزه ومراتع أحلامه إلى بلدته الباب، وهو في أشد حالات اليأس وقتها، فيتذكر عيشه وزوجته التي تركها هناك وأصحابه، وتلوح في عينيه صورة جبل عقيل، ووادي التيم والظلال والهواء. ويلحُّ عليه خيال زوجته وهي تبكي لفراقه وترجوه أن يصحبها في سفرته تلك. ويتذكر الحوار الصادق الذي جرى بينهما وهي تردد بعد أن أحست بعزمه على الفراق: إذا كان لا بد من الرحيل فلنرحل معاً أو نبقى معاً. فيجيبها إن المجد يدعوني للرحيل ...فصبراً حتى أعود وسنبقى معاً إلى الأبد، وحين رأت أن لا فائدة من الرجاء قبلته وودعته بطرف يغرقه الدمع. وهكذا يستعيد ذكرى كل الأشياء كأنها شريط ملوّن يمرّ أمامه ليصطدم بالواقع بعد أن أوشك على الستين من العمر لا يترك باباً إلا طرقه، ولا صديقاً إلا قصده ولا وسيلة إلا اتخذها وذلك للوصول إلى غايته وإدراك الغايات كما يقول ليس بالأمر السهل:

فمـــن بـــاب هـــذا إلى بـــاب ذا
تَرجـــى الأمـــير وتخشـــى الـــوزيرا

ومـــاذا عســـى يســـتقر امـــرؤ
أضـــلته ســـتون إلا كســـورا

ومن أجمل ما نقل إلينا مصطفى البدوي عن الشاعر مصطفى البابي الحلبي القصيدة التي كتبها في القسطنطينية وفيها يحن إلى وطنه وإلى بلدته الباب فيقول في قصيدة طويلة:

تـــذكر بالبـــاب ظَبْيـــاً غريـــرا
وعيشـــاً رقيـــق الحواشـــي نضـــيرا

وفي ســـفح تيمـــاء واد أغـــن
ينبـــت نـــوراً ويثمـــر حـــورا

نســـيماً علـــيلاً وظـــلاً ظلـــيلاً
ومـــاء نمـــيراً وروضـــاً مطـــيرا

في الواقع هذه المجموعة الشعرية لمصطفى البابي الحلبي التي قدّم لها وحققها الشاعر مصطفى البدوي هي المجموعة الشعرية الوحيدة التي وصلتنا من هذا الشاعر الألمعي، ولا نعرف في واقع إذا كان ثمة مراجع متوفرة عن هذا الشاعر في مصر التي عاش فيها بقية حياته وأسس فيها مطبعة تعد من أفضل المطابع في مصر وفي الشرق الأوسط في ذلك الوقت.

في رحاب القصة

• الاتصال الأخير	أ. نصر محسن
• الجندي...	أ . محمد أحمد الطاهر
• فردوس	أ. علي المزعل
• الصندوق	أ . توفيقة خضور
• حكاية نصر	أ. ميرنا أوغلانيان
• سباق نحو ضفَّةِ البحيْرةِ	أ . جمال قاسم السنومي

الاتّصال الأخير

أ.نصر محسن

في مكتب العميد حاييم، رئيس جهاز المخابرات الإسرائيليّة، انتهى منذ قليل اجتماع سرّي، التقى فيه رئيس الجهاز بعدد من ضباطه لوضع استراتيجية أمنيّة لهذه الحرب وقد فاجأت باشتعالها الكيان الإسرائيلي من شماله إلى جنوبه، خرج الضباط وعلى وجوههم توتّر ملحوظ، حيث اختلفت الآراء وتشعّبت وجهات النظر، بقي العميد حاييم هادئاً وهو يراقب ضباطه يغادرون المكتب بغيظ، فتح درج الطاولة وأخرج مصنفاً سميكاً، وبدأ قراءة الأوراق بصمت واهتمام، تناول الورقة الأولى، ابتسم بأسى:

(تقارير عن بعض المعارك التي دارت على الجبهة السورية)

وضع الورقة جانباً وتابع القراءة في الورقة التالية:

(أنا الرائد أبراهام فرج قائد مجموعة الإنزال الجوي خلف خطوط العدو، أؤكّد لكم سيّدي أن المعلومات لدينا كانت خاطئة، فالمكان الذي هبطت مروحيّتنا عليه لم يكن خلف خطوط العدو، بل كان أمام الجنود السوريين، ربّما حصل تجسس على خطوط الاتصال، وعرف العدو مكان نزولنا فسبقنا إليه، وما إن وصلنا الأرض حتى بدأ الرصاص يحصدنا واحداً واحداً، وحين غادرت الحوامة أسقطها صاروخ وانفجرت قربنا، ولا أعلم حتى الآن كيف نجوتُ مع اثنين من جنودنا، بينما قُتِلَ الآخرون جميعاً)

تعرّق جبين العميد حاييم، تناول منشفة ورقيّة وراح يمسح جبينه وصلعته، هزّ رأسه قليلاً، أبعد الورقة جانباً وتناول ورقة أخرى:

(أنا العقيد موريس وولف قائد اللواء السادس والعشرين مدرعات، أؤكّد لكم سيّدي أننا قمنا بواجبنا على أكمل وجه، ونفّذنا الخطة الهجومية كما رُسِمت تماماً، وتقدّمنا عدّة أميال دون أن نواجه أية مقاومة، وقد فوجئنا بذلك الهدوء المريب، مما دعانا إلى التوقف وإعادة حساباتنا من جديد، كان الجوّ غائماً، وبدأت قطرات الأمطار تنبئ بمطر غزير، باشرنا بارتداء معاطفنا، وانتظرنا نراقب أية تحرّكات للعدو، فقد حاذرنا التقدّم أكثر، خشية الوقوع في الكمائن، إلى أن جاءني صوت عبر جهاز اللاسلكي، كان المتحدث يتكلم العربية، قال: أنتم الآن محاصرون، وليس أمامكم سوى الاستسلام أو الموت، ارفعوا مدافعكم للأعلى وترجّلوا من دباباتكم، لديكم دقيقتان فقط للتنفيذ. ثم انقطع الاتّصال واستمرّ الهدوء المريب، أجلتُ النظر حولي، تناولت المنظار ورحت أدقق إلى أبعد مدى، فلم أجد ما ينبئ بصدق كلامه، رسمت خطة انتشار سريعة، استغرق الانتشار حوالي دقيقتين، وفجأة اشتعلت الأرض حولنا)

نفخ العميد حاييم مغتاظاً، أغلق المصنف وصاح بأعلى صوته طالباً الماء البارد، دخل الحاجب مبتسماً وبين يديه إبريق ماء وكأس، حدّق العميد إليه عابساً فارتبك الحاجب، سأله العميد حاييم بهدوء:

-هل أنت عربي؟

-لا يا سيّدي.

-لماذا تضحك إذاً؟

-أنا لا أضحك سيّدي، أنا أبتسم كلما دخلت هنا، وهذه أوامركم سيّدي.

-حسناً، اخرج.

وخرج الحاجب مستغرباً، بينما شرب العميد كثيراً من الماء، نهض وراح يتمشى في غرفة المكتب بهدوء، يحاول، عبثاً، إبعاد التوتر والقلق، يحدثّ نفسه بصمت: (الحرب صادمة لا ريب، ما خطتك يا حاييم؟ يا رئيس جهاز المخابرات، تجربة قتال السوريين ليست بالسهولة التي افترضناها، قتالهم يدلّ على شراسة لم نتوقعها، استبسالهم وإصرارهم على الانتصار أمر غريب، فهل سينهزم جيشنا الذي لا يُقهر؟) يبتسم بمرارة وسخرية: (جيشنا الذي لا يُقهر!!!) يرمق الأوراق المبعثرة فوق الطاولة بيأس، يهزّ رأسه وينفخ بغيظ، يمضي ليجلس خلف طاولته، يفتح المصنّف، يتناول الورقة التالية ويقرأ:

(أنا النقيب صموئيل باز، قائد الكتيبة المكلّفة باستعادة مرصد تلّ أبو الندى، أؤكّد لكم سيّدي أن المهاجمين لم يكونوا سوريين فقط، هناك مقاتلون يتكلمون العربيّة بركاكة، لغتهم أقرب إلى الفرنسيّة، ربما هم مغاربة أو جزائريون أو تونسيّون، يقاتلون بقيادة ضباط سوريين، وقد قتلنا عدداً منهم، وأسرنا بعضهم، حتى إنني بتُّ على يقين أن العرب أمّة واحدة، وليسوا كما نعتقد)

قرع الباب ودخل العقيد فيكتور، أحد معاونيّ العميد حاييم، ابتسم العميد حاييم بوجه معاونه:

-أما زلتَ تعتقد أن الإعلام أهم من السلاح يا فيكتور؟ أما زلت تعتقد أن ذاك المجرم غوبلز على حق؟

-أنا يا سيّدي أبني نظريتي على الواقع.

-بل أنت حالم يا فيكتور، فالواقع الآن غير ما كنا نفترضه، مقاتلونا الآن ينهزمون، كثير من المعارك خسرناها، فهل نبقى جالسين بانتظار خسائر أخرى؟

-كما ترى يا سيّدي، ولكن أقترح أن نستمر ونصعّد من حربنا الإعلامية الآن، فقد يتغيّر كل شيء بعد حين.

اقترب العقيد فيكتور من الطاولة مبتسماً:

-ما رأيك بفنجان من القهوة سيّدي؟

-لا بأس، ولكن حبّذا لو تقتنعون معي بضرورة تحديث الأسلحة بأسرع وقت، علينا أن نطلب المزيد من السلاح، فنحن لا نعلم بدقّة كيف يتسلّح أعداؤنا، نحن نخمّن يا فيكتور، وقد نكون على خطأ. تفضل اجلس لنشرب القهوة معاً.

يجلس العقيد فيكتور على كنبة جانبيّة، ويصغي باهتمام لحديث العميد حاييم، يسأله حاييم:

-هل دققت جيداً في تقارير مقاتلينا يا فيكتور؟

-إلى حدّ ما يا سيّدي.

-أتمنى أن تعيد قراءتها بإمعان، ربما تعرف كيف يحارب السوريّون، في اجتماعنا اليوم لم تعجبني آراؤكم، وأعتقد أنكم تستسهلون النزال مع العدو، علينا ألاّ ننسى أننا فقدنا الكثير من مقاتلينا، ومن خيرة ضباطنا بين قتيل وجريح، فماذا ننتظر بعد هذا كله؟ هل ننتظر قتلى آخرين؟! الحرب ليست معارك كلام يا فيكتور، بل هي معارك سلاح.

-يا سيّدي، نحن جهّزنا الفوج الرابع بأحدث ما لدينا من سلاح، فلننتظر نتيجة معاركه.

-لا تختزل الكلام يا فيكتور، جهّزناه بأحدث الأسلحة، وبمواكبة إعلام حربي مجهّز بأحدث الكاميرات، وبإعلاميين مميزين، هذا يعني أن معركة الفوج الرابع ستحدد من منا على خطأ، ومن منا على صواب.

-حسناً سيّدي، فلننتظر ونرَ.

يفتح العميد حاييم المذياع، وتنبثق من الإذاعة الإسرائيليّة أخبار الانتصارات، يبتسم العقيد فيكتور ابتسامة الانتصار، يرمقه العميد حاييم بسخرية، ثم يغلق المذياع:

-لا بدّ أنك تصدّق ما تبثّه إذاعاتنا.

-طبعاً أصدّق يا سيّدي، الفوج الرابع الآن يحقق انتصارات مذهلة، فهو يمتلك كل مقوّمات الانتصار.

-حسناً يا فيكتور، اتّصل بالوفد الإعلامي المرافق للفوج، ودعنا نتأكّد من صدق ما تقول، ربما نفرح قليلاً بعد هذه الكآبة كلها، اتّصل يا فيكتور.. اتّصل.

يتناول العقيد فيكتور جهاز اللاسلكي ويتّصل، يرنّ الهاتف كثيراً دون أن يردّ أحد.

-لا أحد يردّ، ربّما كانوا منشغلين يا سيّدي.

-هاتِ الجهاز يا عقيد فيكتور.

يتناول العميد حاييم الجهاز من فيكتور ويتّصل.

-نعم إنه يرن.

وبعد ثوان قليلة يفتح الخط في الطرف المقابل، يرتسم الفرح على وجهيّ الضابطين، ويبدو العميد حاييم متلهفاً لسماع الأخبار، فيسرع في الكلام عبر الجهاز بعد انتظار.

-آلو.. آلو.. يا أربعة..

ويأتي الردّ صادماً:

-(أنا الملازم أول علاء.. شوف شي حدا يترجملك عربي وبعدين حاكيني.. عربي شامي هاه)

الجندي...

أ. محمد أحمد الطاهر

عندما بدأ ينادي لصلاة الفجر، كان أبو صبحي العراقي(ذو الأصول العراقية) قد هيأ نفسه للسفر إلى دمشق، فهو لم يذهب للصلاة في مسجد القرية منذ أن قام المسلحون بتغيير خطيب المسجد، الذي ما فتئ أن يدعو للجهاد المقدس ضد الدولة العلمانية الكافرة، وبأن الفتوحات انطلقت من عاصمة الخلافة باسطة سيطرتها في العراق والشام، وستصل حدود مصر وتطوان، بل قاموا أيضاً بتغيير اسم مسجد الرحمن إلى مسجد ابن تيمية.

كانت الشمس قد ملأت الكوكب الجريح بأشعتها، عندما وصل باص المسافرين المنطلق إلى مدينة دمشق، الحاجز الذي أقامه المسلحون عند مفرق مدينة الثورة، بالقرب من المطار القديم.

في تلك اللحظات أصبح وجيب قلب أبي صبحي يدق مثل عصفور وقع في قبضة الصياد، إنها المحاولة الثالثة للسفر إلى دمشق، بعد أن فشل بإقناعهم بالمرتين السابقتين، فقاموا بإعادته إلى قريته.

صاح المسلح الملثم الذي صعد إلى الباص قائلاً:

_ على الجميع إخراج أوراقهم الثبوتية ..

كان العنصر ذو اللباس الأسود يتفقد هوياتهم وأوراقهم الصحية التي تبرر سفرهم، فكان يرفض غالبيتها ولا يقتنع بها، وعندما وصل إلى أبي صبحي العراقي بدأ يقرأ التقارير الطبية التي تصور حالته التي تستدعي العلاج خارج عاصمة الخلافة، فهز رأسه :

_ إذاً لم تستفد من العلاج في مشافينا ؟

لم يجب أبو صبحي بأيّ كلمة لأنه يعرف عاقبة إثارة غضبه، بمجرد الرد ولو بحرف واحد.

كتب المسلح :

_ يسمح له بالعلاج في مشافي بلاد الكفار على أن يعود بعد أسبوع، ثم قام بمهرها بخاتمه وتوقيعه.

_ باركك الله يا شيخ.. قالها أبو صبحي ممتناً.

بعد أكثر من ثلاث ساعات من التفقد والتفتيش للمسافرين لم يسمح سوى لخمسة عشر منهم بمتابعة السفر، من أصل خمسة وأربعين مسافراً تم إعادتهم .

عندما تجاوزت الحافلة حاجز المسلحين، انطلقت بأقصى سرعتها وكأنها تحررت من قيود العبودية، فكان صوت المسجل يصدح بالأغاني، وضحكات المسافرين يتجاوز صداها هدير محرك الحافلة على الطريق السريع إلى دمشق.

في المساء وصل أبو صبحي إلى دمشق، فاتجه فوراً إلى فندقه المفضل في ساحة المرجة، فقد اعتاد عليه منذ أن كان يخدم مجنداً في منطقة القنيطرة، منذ أكثر من أربعين سنة. فهو يعرف كلّ العاملين فيه، حتى آلت إدارته للفتى حسان الذي خلف والده منذ سبع سنوات، التقاه بفرح شديد :

_ العم أبو صبحي! الحمد لله على سلامتك.

تعانقا بحرارة:

_ أهلاً بولدي حسان.. ما شاء الله لقد كبرت وأصبح لك شارب ولحية جميلة كأبيك رحمه الله.

_ تسلم يا عم أبا صبحي لم تزرنا منذ أن توفي والدي، الله يكون بعونكم يا عم.

_ نعم يا ولدي.. عمك تعبان جداً، أريد إبريق شاي، ثم أصلي وأنام كي أنهض مبكراً للبحث عن ولدي صبوح .

_ تأمر يا عم.. لقد انقطعت أخبار صبحي عني منذ سنتين، في السابق كان يتردد إلى الفندق كلما سنحت له الفرصة، نسأل الله أن يكون خيراً، فالإجازات قليلة، وربما انتقل للخدمة العسكرية في مكان آخر.

في صباح اليوم التالي اتجه أبو صبحي إلى حيث كان ولده يخدم منذ سنوات، هناك لم يجبه أحد، إلا أنه تمكن في النهاية من مقابلة الضابط المسؤول، الذي رقّ قلبه لكبر سن أبي صبحي، وحالة التعب التي كانت بادية على محياه.

بعد لحظات دخل شاب قوي البنية، يرتدي لباساً عسكرياً مموهاً، وقد أدى التحية العسكرية، فارتجت أرضية الغرفة من قوة خبطة قدمه، فوقف منتصباً أمام الضابط مردداً بنبرة حادة اسمه ورقمه العسكري بسرعة رهيبة، ارتعش أبو صبحي لصوته المدوي كالرعد في صدر السماء، فرفع رأسه مصوباً نظراته، من تحت حاجبين أبيضين كثيفين، فيما بادره الضابط قائلاً:

_ سلم على هذا الرجل الطيب يا صبحي.

التفت إليه صبحي فالتقت عيناه بعيني والده الذي لم يرَه منذ سنوات، فارتمى بأحضانه وهو يقبله على رأسه ويديه، في مشهد أثر في أعماق الضابط الذي بادره على الفور:

_ صبحي؟ اذهب بوالدك إلى ظل الشجرات، واجلب له الشاي والدخان لأنه يبدو متعباً.

خرجا من غرفة الضابط وقد شكراه على حسن صنيعه، حيث أدرك الضابط كم هما بحاجة لأن يخلوا مع بعضهما.. ليتحدثا بحرية أكثر، فضلاً عن أن المجند صبحي كان من ذوي السمعة الحسنة في المعسكر.

_ أجل يا ولدي، أهلكونا، مرغوا أنوفنا بالتراب، لم يحترموا كبيرنا ولا صغيرنا، ولا كرامة لأحد عندهم، هذه هي المحاولة الثالثة حتى تمكنت المجيء إلى الشام، كانوا في كلّ مرة يرفضون طلبي لعدم وجود مبرر للسفر، حتى اختلقت لهم سبباً مرضياً بموجب تقرير طبي ساعدني أحد الأطباء في الحصول عليه، فمنحوني موافقة السفر إلى بلاد الكفار للعلاج على حدّ زعمهم.

_ يا والدي هم الكفار لأنهم في الأصل لا يعرفون من الدين إلا اسمه، كنت خائفاً عليك وعلى والدتي، لكنك لم تخبرني عن أحوالها؟

تدحرجت دمعتان سخيتان من عيني أبي صبحي، فيهما تعبير عن مصاب كبير.

_ أبي ما الأمر؟

_ ولدي لقد أصبحت رجلاً قوياً ما شاء الله وبزنديك تهزّ تلك الجبال، لذلك لم أعد قلقاً عليك، الحمد لله على أمر الله تعالى، أمك رحلت وهي تدعو لك وتحلم برؤيتك، لكن ما باليد حيلة فقد داهمها المرض بقوة ولم يكن بإمكاننا إسعافها إلى أيّ مكان، تعرف الوضع الذي نعيشه هناك.

أجهش صبحي بالبكاء ووالده يربت على كتفيه ويهزه معنفاً:

_ عيب عليك يا ولدي الرجال لا يبكون، الحمد لله أنها ماتت بين يدي ولم تمت بقذيفة ولا تحت جدار، مضت سنتان على وفاتها، ادعُ لها بالرحمة أفضل من كلّ شيء.

بعد لحظات هدأ صبحي واستكان، وراح يدخن سيكارته مطلقاً تنهيدة حرى:

_ سامحني يا أبي لأنني أدخن أمامك.

ابتسم والده وهو يمسح شاربيه الأبيضين المهملين قائلاً:

_ لا تهتم، أنت رجل وتعي تصرفاتك، وانتظر اليوم الذي تنهي فيه خدمتك العسكرية كي أراك عريساً، وأرى أولادك.

بعد عدة ساعات أمضاها أبو صبحي برفقة ولده وقبل أن يغادر قال له:

_ ولدي سأبوح لك بسرّ ولك حرية القرار؟

_ قل يا أبي ولن أخالفك الرأي؟

_ ولدي.. لقد عرف الكلاب أن لي ابناً يخدم في الجيش، فطلبوا مني مراجعتهم عدة مرّات وفي كلّ مرّة يسألونني السؤال ذاته، ألم ينشق ولدك بعد؟ وأجيبهم وأنا صادق تعرف والدك لا يكذب ولو على قطع رأسه بأنني لا أعرف أين أنت منذ سنوات.

_ ماذا يريدون يا أبي؟

_ إنهم يساومونني لأجبرك كي تنشق عن الجيش، وتنضم إلى صفوفهم، ويعرضون التعويض المادي الذي أريده، إنهم مجرمون يا ولدي لا أمان ولا دين لهم شيمتهم الغدر والتنكيل ولا يتورعون عن اختلاق أيّ تهمة، فالتهم لديهم جاهزة وكلها تؤدي إلى القصاص، وأنا أعلم عندما أعود قد يسجنونني وقد يلفقون لي تهمة تودي بي إلى الموت، لأنهم لن يصدقوا بأنني لم أزرك، سأقول لهم الحقيقة التي تقولها لي ولو نزعوا حنجرتي من حلقي.. فأشار بيده إليها تعبيراً عن إيمانه بقدره.

سحب صبحي نفساً عميقاً من سيجارته وهو يحدق بجبل قاسيون الذي بدا كعملاق يحتضن بذراعيه دمشق، التي هزمت كلّ جحافل الغزاة وما هُزمت، ثم حدق متفرساً بعيني والده وكأنه يودعه سراً خطيراً:

_ والدي ..انظر إلى جبل قاسيون لو بدلوه ذهباً وملكوني إياه، لن يفرحوا بشيء مني، أموت وأحيا هنا بين رفاقي، هذا كلّ ما لدي.

بكى أبو صبحي بحرقة من أعماقه وولده يهدئه وهو مذهول بما يراه:

_ والدي ألهذه الدرجة أنت خائف منهم؟

_ لا يا بني، بل أبكي من شدة الفرح، وقد أصبحت رجلاً يعتمد عليه ولم يخب ظني بك، الآن أشعر بأن رأسي ارتفع للسماء .

تعانقا بحرارة مجدداً وكأنهما يتوادعان للأبد.

وكانت آخر كلماته لولده صبحي:

_ ولدي الحبيب، لقد أصبح عمري سبعين عاماً، وليس لدي ما أخاف عليه، وإياك أن تساوم على وطنك، حتى ولو ساوموك بحياتي، لي رب يتولاني ويرعاني.

في المساء وبينما كنت أهم بالدخول إلى صالون الفندق، فوجئت بأبي صبحي يجلس فيه يشرب الشاي ومعه حسان مدير الفندق الذي بادرني مرحباً على الفور وقال لي:

_ أهلاً بك أستاذ أحمد، تعال وشاركنا شرب الشاي، جلست معهما وتعرفت إلى أبي صبحي راح يسرد علي ما حدث معه منذ أن جاء من قريته وحتى لقائه بولده صبحي وما قد ينتظره من مفاجآت.

كان يحدثني من أعماقه وكلّه إيمان وقناعة بما قد يحصل له، لم أكن أتصور أن هذا الرجل المسن سيعلمني أجمل درس في حبّ الوطن، لم يكن أبو صبحي يحارب بسلاح أو يقاتل بيديه، بل حاربهم وقاتلهم بنقائه وبتربيته الرائعة لولده، حتى عندما عاد إلى قريته في الرقة ولفقوا له تهمة سب الذات الإلهية، وفصلوا رأسه عن جسده أمام جميع الناس.

كان شامخاً كشموخ السنديان، لم يرف له جفن ولم تتهاوَ له دمعة، ليتم دفن جثته في مكان مجهول، كيلا يصبح قبر هذا الشيخ المسن رمزاً للأجيال القادمة، ضحى من أجل كرامة وطنه وكرامة ولده الذي رفض التعازي بوالده، بل المباركة له باستشهاده على يد عابري الحدود في ظلمات الدجى، رغم إدراكه أنه ذاهب إلى مصيره لأنه أراد أن يعلم ولده الجندي، أن الجبان يموت ألف مرّة أما الشجاع فلا يموت إلا مرّة واحدة.

فردوس ...

أ. علي المزعل

اليوم أيقظني العيد باكراً.

خطر لي أن لا أفتح له الباب، خشيت أن يكون مسلحاً.

لكن شوقي لأمي دفعني للنهوض، ... فأنا لم أزر قبرها منذ أن ماتت دروب المخيم في لحظةٍ من غبار ونار، واعتكرت أيامنا برصاص العابرين.

وها أنا الآن أزحف مع الزاحفين من أبناء المخيم عبر الشوارع والأزقة التي ابتلعت أطرافها كتل الاسمنت المتدلية من واجهات البيوت المتخاصرة على امتداد الطريق إلى المقبرة.

يجللها السوّاد، وتنفر منها أعمدة الحديد التي قاومت الانصهار.. وجوه طافحة بالدهشة والأسئلة، وعيون لائبة في فضاء مثقلٍ بالاحتمالات...، وهمهمات وأحاديث متداخلة كدويّ السيول في الأودية العميقة...، وخطى مرتبكة تجوس النتوءات والحفر التي ما تزال أطرافها تقبض على سوّاد القذائف ونيرانها.

وعلى بوابة المقبرة يسود الصمت المثقل بالصراخ والدهشة حيث تبدو بكل ما فيها حقلاً من ركام.. ويخيّل إليك أن الموتى قد خاضوا معارك ضارية دفاعاً عن قبورهم.. أو أن العابرين كانوا يخشون قيامهم.

شاهدات القبور ورخامها وأزاهيرها... والطرقات المؤدية إليها.. ضاعت أسماء الشهداء، لم يبق منها إلا حروف مقطعة على أطراف الرخام المحطم..، واحترقت لوحات الذكر الحكيم، وأسماء القرى والبلدان، التي كانت تشكل جغرافية فلسطين والجولان، وبلدانها وأعلامها، وأيامها الماجدات...

بحثت مع الباحثين عن قبر أمي... حاولت تجميع كثير من قطع الرخام المتناثرة.. عسى أن أجد حرفاً أو تاريخاً يرشدني إلى قبرها... فلم أستطع.

مرَّ وقت طويل والآلاف من أبناء المخيم يبحثون عن موتاهم دون جدوى... لا شيء إلا الدهشة والأسئلة والدموع.

جلست على كومة من تراب محروق... قرأت الفاتحة... وفاض لساني بالدعاء والاستغفار، حتى خيَّل إلي أن قلب أمي عاد لينبض من جديد.

ارتبكت خطاي بين الحفر والركام ومرَّ زمن من الحيّرة والأسئلة.. ثم مضيت باحثاً عن ركام بيتي المحاذي للمقبرة تماماً... وقفت على جبل من حطام، تفحصت المكان بعينين مرهقتين تجمد الدمع في مآقيهما... ضاعت ملامح المكان، حاولت أن أجد طريقاً أو معبراً... إلى أن وقعت عيناي على فوهة من نهار وضوء.. تسللت عبرها متهادياً، وأنا أداري جسدي النحيل من نتوءات الاسمنت التي بدت كحزمة من سكاكين قاطعةٍ... جاست عيناي المكان، ... جدران مهشمة يكسوها الهباب، وكتل متدلية توحي بسقوط قريب.

بحثت عن كتبي ودفاتري وأقلامي التي حملت أحلامي عبر زمن طويل... لم أجد شيئاً.

احترقت جميعها.. لم أجد سوى بعض السطور القابضة على أطراف الأوراق المحترقة وقطعة كرتونية صغيرة نهضت أطرافها تحت الركام.. سحبتها ببطء شديد، أزلت عنها الغبار مسحتها مرات متلاحقة.. فأطلت صورتي شاباً في ريعان الشباب وعلى كتفه نجمة ما زالت تقبض على شيء من بريقها الذي كان عاودت مسحها من جديد حتى نفرت حروفها الباهتة:

بطاقة تعبئة:

الاسم: الملازم مشعل النبهان

الرمز: فردوس

ملاحظة: عندما تسمع هذا النداء.. فردوس.. في وسائل الإعلام عليك الالتحاق بقطعتك العسكرية فوراً.

قرأتها مرات متلاحقة، لفني الصمت، كأن قطع الاسمنت قد أغلقت فمي.

وفي الأعماق انداحت ذكريات وأيام، كانت عامرة بشهوة الحياة، تذكرت ذلك اليوم قبل خمسين عاماً حين عدت من قطعتي العسكرية وعلى كتفي نجمة كنت أعتقد أن شعاعها يملأ الكون، وعلى جبيني نسر ذهبي يحملني إلى القمم العاليات.

يومها احتضنتني أمي.. قبلت وجنتي ثم لثمت النجمة اللامعة على كتفي بشفتين مرتجفتين تفيضان بالدعاء لي ولرفاقي الجنود...

اعتقدتْ أن ولدها صار رجلاً مهماً.. فقالت بلهجة حازمة:

يا بني لا تؤذِ أحداً، وإن فعلت سأقطع الثدي الذي أرضعك.

هذه العبارة لا تزال تحفر في أعماقي، وقد ضبطت خطاي حتى هذه اللحظة.

تناهضت مثقلاً بالذكريات.. زلّت قدماي بين الركام مرات متلاحقة.. وفي كل مرة أنهض من جديد... وفي الأعماق ينداح النداء الذي حلمت به كثيراً..

فردوس.. فردوس..

الصندوق

أ. توفيقة خضور

(1)

كان يكبرني بعامين، وعينين مُشعّتين مشاكستين.. وقلبٍ ينافس ياسمين الشام نقاءً وعطراً.. ينتهز فرصة انشغالي مع زميلاتي في باحة المدرسة، ويتسلّل إلى صفّي، يتجه مباشرة إلى مقعدي، يفتح حقيبتي بأصابع الحذر، يستلّ منها كتاباً لا على التعيين، ويغادر، وعند المساء، وقبل أن أكتشف غياب أحد كتبي، يُقرع باب دارنا، فأهرع لفتحه، وأتسمّر أمامه مأخوذةً، وقلبي ينقر سجنه ليفتح فيه ثغرةً، ويطير إليه، ليحضنه، ويتشمّم عبقه.. بينما يرتعد كتابي بين أصابعه الممدودة نحوي، ويتلعثم دهراً قبل أن يقول:

ـ استعرته من حقيبتك لأني.. لأني..

يقاطعه صوت أمي:

ـ من بالباب يا ليلي..؟

ـ إنه سعيد المغربي يا أمي.

تنادي عليه:

ـ تعال يا ولدي لتشرب معنا الشاي.

ترقص جوارحه وجوارحي، ويدخل، والقلب منه يسابق القدمين، يرشف من الشاي رشفة، ومن عينيّ رشفتين، بينما ترقص الروح احتفاءً بنظراته.. وتنام الياسمينة التي تركها لي في الكتاب على شفتيّ وصدري حتى تهدأ روحها وروحي، ثم تتوسّد قلبَ الصندوق الخشبي الصغير الذي أهدته لي والدته، يوم دعتها أمي على الغداء بعد وصولها من المغرب بيومين.. تلك المرأة العاشقة لزوجها حدّ الوله، لحقت به مع ابنها وابنتها بعد سفره إلى الشام بعدة أيام، مع أنها تعرف تماماً استحالة رؤيته في المدى القريب، لأنه انضمّ وكتيبته فور وصولهم إلى القوات السورية أثناء حرب تشرين..

تبسّمت روحها لحظة حطت بها الطائرة في مطار دمشق الدولي، وهمست لها:(يكفينا أن نقتسم مع الحبيب الهواء نفسه..)

وشاءت الأقدار أن تسكن هذه الأسرة بجوارنا، فتعرّفت أمي عليها، وسرعان ما توطدت العلاقة بيننا وبينهم، وبتنا نجتمع حول المذياع في بيتنا، لنتابع أخبار الحرب، وما أن يقول المذيع بصوته الجهوريّ:

(جاءنا الآن ما يلي) حتى نحبس أنفاسنا، ونتحوّل جميعاً أجهزة تتصّت عالية الدقة، بانتظار ما سيقوله:

(تصدّت طائراتنا الحربية لمقاتلات العدو، وأسقطت سبعاً منها، بينما لاذت باقي الطائرات بالفرار)

ويصدح صوت الملكة (فيروز) مُنعشاً عشق الحياة والكرامة في النفوس:

(خبطة قدمكم ع الأرض هدّارة.. إنتو الأحبّة وإلكم الصّدارة..)

تتعالى ضحكاتنا، تنهمر دموع الفرح من مآقينا، وتلتحم الصدور مهنّئةً بالانتصار.. ويا له من التحام لم يبرد صدري بعده أبداً، فما أن حضنني سعيد إثر سماعنا لذاك البلاغ، حتى بدأ صدري يتبرعم، والبرعمان راحا ينموان بسرعة أذهلت أمي، فابتاعت لي ما يسترهما، ويلجم فورتهما.. لكنْ.. أنّى لأيّ قيدٍ أن يلجم صدراً يحضنه سعيد، كلما هلّت بشائر بلاغٍ عسكريّ..

عشقتُ سعيد، والبلاغات العسكرية، فهي بشائر الخير على كل الجبهات، رغم أني كنت ما أزال في الحادية عشرة من عمري.. لكنّ بلاغاً واحداً شذّ عن ناموس البلاغات الحبيبة، حيث حمل لنا نبأ استشهاد عدد من الجنود السوريين والمغاربة في خندق واحد على أرض القنيطرة، وكان والدي ووالد سعيد من بين هؤلاء الشهداء.. وأبت امرأة الشهيد المغربي أن يُوارى جثمانه إلّا في ثرى الشام، رافضةً رحيله مع قافلة الشهداء إلى مراكش، وقفتْ بشموخ لبؤة جريحة أمام المشيعين، وهتفت: دمشق هي مرّاكشنا مذ وطئنا ترابها، وزوجي لن يُدفن إلّا هنا في مقبرة الشهداء، بين إخوته وأهله، وتحت ظلال الياسمين..

وملأت زغاريدها آذان الكون، وهي تودّع جثمان زوجها المكفّن بالعلم السوريّ..

(2)

بإلحاح يُقرع جرس الباب في ذات الموعد الأثير، أهرع كعادتي لفتحه، والكتاب الغائب من حقيبتي المدرسية يرقص أمام عينيّ محتفلاً بحامله.. خاب خيالي هذه المرّة، فخالتي أمّ سعيد هي التي تقف أمامي الآن بقامتها المتسامقة، وعينيها الفصيحتين،

وسمرتها العذبة.. هذه الأقانيم الثلاثة تُمسك بك من تلابيبك عندما تقع عينك عليها، وتجبرك على التحديق فيها بدهشة، وإعجاب.. قد يكون رأيي فيها مجروحاً، ربما.. لأن هذا الذي يُدهشني فيها، هو ذاته الذي عشقته في ابنها سعيد، فهو النسخة الشابة من والدته التي جاءتنا في ذلك اليوم حاملةً بين يديها صندوقاً خشبياً صغيراً، تكسوه الأصداف، فتمنحه منظراً رضيّاً..

ارتعشت مفاصلي، فكيف وصل صندوق بريدي إلى يديها..؟ الصندوق الذي منحتني إياه عن طيب خاطر ومحبة، والذي يضمّ رسائل ابنها إليّ..؟ رسائل بلا كلمات، يقطفها ويُودعها داخل كتابي، فيستلمها القلب، ويوسّدها في بيتها الآمن، فكيف ومتى طار البيت وحط بين يديها..؟ ساقاي ترتعدان بشدة، وقلبي يقرع طبول الخوف بين ضلوعي، وعيناي تتلعثمان، وهما تتفرّسان في الصندوق، ويبدو أنها فهمت ما حلّ بي، ابتسمت بسخاء، ثم أشارت بعينيها صوب نافذة غرفة أخي أمجد، الذي رأته يسترق النظر إلى ما بيدها، وتتصارع الألوان على وجهه..

آآآآآ.. الآن فهمت.. قهقهتْ روحي جذلى، فأخي صار في سنّ العشق إذن.. وأمّ الحبيبة جاءت تُعلن مباركتها لهذا الحب.. يا لذكاء قلبك، ونقاء روحك يا خالتي أمّ سعيد..! وكم أنت مختلفة عمّن سواك من نساء هذا الزمان..! دعوتُها للدخول، وركضت صوب غرفتي لأطمئن على صندوق بريدي، رغم يقيني أن الصندوقين شقيقان.. رباه.. ما الذي أراه..؟ صندوقي تمرّد على مكمنه، حطّمه، وغادر سجنه.. عاينته بالقلب المشتاق والعين الولهى، فألفيته بات أكبر من أن يتّسع له سجنه، طبطبتُ عليه بأصابع الرضا، ففاحتْ من خشبه رائحة خصوبة وربيع عريق.. فتحته، فهدلت لي عيون الورد الساكنة فيه، ثم هتفت معاً بصوت أخضر، يُحاكي مناغاة طفل غرير لثدي أمّه: (لقد آن الأوان)

دخلتُ في بعضي حياءً، فجلستُ متكئة على سريري، وصندوق بريدي بين يديّ، داعبتُ وجوه الرسائل، قديمها وحديثها، وتعطّرتْ أصابعي بأريجها، فسرى في مفاصلي خدر لذيذ، دعاني إلى حرم النوم، فلبّيت، وما أفقتُ إلّا على صوت والدتي تهمس في أذني: خالتك أم سعيد طلبتك لابنها..

(3)

ومازال (أحمد بن سعيد) فخوراً بجدّيه السوري والمغربي، بارّاً بهما، ومازال يقرأ الفاتحة كلّ عيد على قبرين متجاورين، تظللهما ياسمينة دمشقية..

حكاية "نصر"

أ. ميرنا أوغلانيان

تسللت خيوط شمس الصّباح لتداعب وجهها الذي لم تفقده التجاعيد جماله، تململت في سريرها قليلاً، ثمّ نهضت صوب التقويم (الرزنامة) المعلّق على الجدار. انتزعت بأصابع مرتعشة الورقة الصّغيرة، ونظرت بعمق إلى الورقة التالية... 6 تشرين الأول...

أعادت لها تفاصيل ورقة التقويم شريط ذكريات عمره نصف قرن، وكأنّ ما حدث منذ خمسة عقود كان في الأمس القريب...

جلست على الأريكة، واستجابت لغوايات الذاكرة التي ردّتها إلى الزّمن الجميل، إلى عام 1973... كانت صبيّة جميلة، عروساً تنتظر مولودها الأوّل وهي تلهج بالدّعاء بالسلامة لزوجها ورفاقه الذين يناجزون العدوّ على تخوم الجولان.

لقد دارت رحى الحرب، حرب عزّة وكرامة واستعادة لحقٍّ سليب، حرب الأخوّة العربية التي تأبى الضّيم وترفض غطرسة غدّة سرطانية زُرعت في صدر الأمة وأُطلق عليها اسم "اسرائيل".

تستذكر فخرها بتقاطر الأشقّاء من بلدانهم العربية، وبتقديمهم الدّعم لبلسمة جراح الأمّة بعد النّكسة، فيعتصر قلبها ضلوع هؤلاء الأشقاء في الحرب الظّالمة التي تطحن اليوم ومنذ عقد منذ الزّمن، البشر، والحجر في سورية.

كان المذياع يومها وسيلة تواصلها مع العالم الخارجيّ، ونافذتها على معارك المجد التي يخوضها الشّرفاء.

عاد إلى سمعها صوت فيروز وهي تغرّد بأحلى الأغاني الحماسيّة التي تشحن المقاتلين والمواطنين عزيمةً وهمّةً وإصراراً على زرع أشجار النصر، في يوم لم يكن فيه صوت الطيران الحربيّ السّوريّ الذي يجوب سماء الوطن إلا "سيمفونية" عزّ وفخر.

خاض السّوريون حرب التّحرير بعزيمة وإيمان، لم ترهبهم طائرات ودبابات ومدافع العدو الغاشم، لم يختبئوا في الملاجئ، بل كانوا يعتلون سطوحَ الأبنية ويلوّحون مفاخرين بأيديهم لنسور الوطن في طائراتهم التي تنسف أسطورة العدوّ الذي لا يقهر.

كانوا في شوق للحظة إسقاط طائرة "إسرائيليّة"، يُتابعون تقدّم الأبطال في السّفوح والتّلال والقرى.

لمست بطنها، وتذكّرت آلام المخاض الذي دهاها على حين غرّة في السادس من تشرين. كانت وحيدة في المنزل، فزوجها وإخوتها ورفاقهم في جبهات القتال. وعندما طوّحتها خمرة الألم قرّرت الخروج إلى الشّارع والذهاب إلى المشفى.

صدمتها الشوارع الخالية، إنها ساعة "إفطار"، وما من سيّارة عابرة تغيثها، وتنقلها إلى المشفى.

تحاملت على نفسها ومشت اتجاه الساحة، فلمحت من بعيد سيّارة "جيب" عسكريّة مقبلة. لوّحت لها وصرخت طالبة العون.

مع اقتراب السّيّارة منها شكرت لله الذي يسّر لها هذه النّجدة فتعالى صوتها بالدّعاء:

"يارب"، زوجي والشّباب الذين برفقته، ظلّلهم بحماك، وانصرهم على مَن عاداك".

توقّفت السّيّارة وترجّل منها ضابط شابّ ساعدها في الجلوس في المقعد الخلفيّ وقال لها:

اطمئنّي يا أختي، زوجك يقوم بواجب مقدّس، ونحن في خدمة عائلته مهما قست الظروف. يا ربّ لعلّها بُشرى خير..."

أقلّها الضابط لأقرب مشفى وغادر وهو يوصيها:

"ادعِ لنا... نحن أصحاب حقّ... وربك مع الحقّ..."

ما زادها ألم الولادة إلاّ دعاءً لكلّ من يقاتل ليحمي الوطن، إلى أن شقّت صرخة مولودها آفاق روحها.

وضعت الممرضة بين يديها وليدها الصغير وقالت لها:

"مبروك، صبي، ماذا ستطلقين عليه من الأسماء؟"

تذكرت كيف أنها لم تفكر ولو لثانية باسم المولود، وكيف سبق لسانها عقلها ونطق اسم "نصر".

تعمّد "نصر" بدم والده الذي نال شرف الشّهادة على سفوح مرصد جبل الشّيخ، ورضع حب الوطن والتضحية في سبيل كرامته، وكبر في سورية التي سيّجها الأب الشهيد ورفاق سلاحه بالدم وبالروح.

ما زالت تذكر أصوات "العراضة" التي عادت بزوجها، وقد بُحت الحناجر المُرددة "لا إله إلا الله والشهيد حبيب الله".

ما غابت عن بالها ابتسامة بقيت محفورة في وجهه الباهت، وكأنه يقول لها وللجميع: "حاربْنا.. وانتصرنا..".

انتزعها صوت جرس الباب من غيمة ذكرياتها، وعندما فتحت الباب دخل ضابط وسيم يحمل قالباً كبيراً من الحلوى.

"لا تؤاخذني يا ولدي، ما عادت صحّتي تساعدني في إعداد كعكة عيد ميلادك".

تأملت وجه ابنها طويلاً، تأملت جسده الممشوق في البزّة العسكرية.. كان يشبه والده في كل شيء، في كلّ صغيرة وكبيرة من ملامحه وقسمات وجهه.

كان حلمها أن يصبح ابنها ضابطاً في الجيش كأبيه، يحمل راية الوطن الخفاقة، ويكمل سفر مجد حفره رجال تشرين بأحرف من ذهب على أسوار التاريخ.

أرادت أن تثبت للدنيا بأسرها أن سورية "ولّادة" وابن البطل بطل وابن الشّهيد قادم على الطريق يُعلي عزَّ الوطن.

"أمّ نصر... أمّي... الكعكة ليست لعيد ميلادي فقط، إنها لذكرى "نصرنا" الكبير..."

ابتسمت أمّ "نصر" واحتضنت ابنها وهمست في أذنه:

"والدك ورفاقه صنعوا النّصر ورحلوا أبطالاً.... حافظو عليه اليوم يا ولدي فهذا البلد لا يحميه إلا أبناؤه..."

سباقٌ نحو ضفَّةِ البحيْرةِ

أ. جمال قاسم السلومي

أعترفُ أنَّني بطيءُ رجْعِ الصَّدى، فكلُّ حادثةٍ تقعُ لي تُبلِّدُ مشاعري إلى أمدٍ، وتظلُّ هذه الحادثةُ بعيدةً عنْ تفكيري وتصوراتي إلى أنْ أجدَ نفْسي فجْأةً أعيشُ الصَّدمةَ وكأنَّها حصلتِ الآنَ.

كلُّ الذي أعرفُه الآنَ أنَّ كُلَّ خليَّةٍ في جسدي تُؤلمني وأنَّني مستلقٍ في سريري في المشفى منذُ عدَّةِ شهورٍ وقد خضَعْتُ لعدَّةِ عملياتٍ جراحيَّةٍ في البطنِ والظَّهرِ والسَّاقِ أعادتِ الحياةَ إلى جسدٍ شبْهِ ميِّتٍ، وتنتظرُني عدَّةُ عمليَّاتٍ في الوجهِ تعيدُ لوجهي خارطةَ معالمِهِ، سرحْتُ بخواطري بعيداً وكأنَّني في حلمٍ.

إنَّه خريفُ عام ثلاثةٍ وسبعينَ وتسعمئةٍ وألفٍ، كنتُ في عربتي في مُقدِّمةِ الرَّتْلِ بل الصحيحُ أنَّ الملازمَ عقاباً كانَ يزاحمني على المقدمةِ.

يوجدُ شبَهٌ كبيرٌ بيني وبينَ الملازمِ عقاب، كلانا ملازمٌ مجنَّدٌ في الجيشِ، وكلانا وُلِدَ وترعرعَ قربَ الماءِ، فقد ولِدْتُ على ضفافِ نهرِ الفراتِ، بينما ولِدَ الملازمُ عقابٌ في ربوعِ العاصي، ويجمعُ كلينا عشقُ المياهِ، والذَّودُ عن حياضِ الوطنِ، وكلّ واحد منّا يودُّ أن يبرّ بقسمِه، فقد أقسمْتُ لخطيبتي أن أبللَ شالها بمياهِ بحيرةٍ طبريّةَ، بينما أقسمَ الملازمُ عقاب كما أخبرني مراراً أن يقبِّلَ ضفّةَ البحيرةِ، وأن يخوضَ في مياهِها حتى ركبتيه وأن تجوسَ عيناه في الطَّرفِ الآخر من البحيرةِ آثار بيوتِ بلدةِ أهلِهِ في ناحيةِ المجدلِ التي أُكرِهَ أهلُهُ على مغادرتِها قبل عامٍ ثمانية وأربعين.

ومعَ أنَّني في يقظةٍ تامَّةٍ إلَّا أنَّني كنْتُ كمن كانَ في كابوسٍ مرعبٍ، أتوجَّسُ خيفةً، أبكي، أصرخُ، أتألمُ.

بحيرةُ طبريةَ أمامنا ولا يفصلُنا عنها إلاَّ مئاتٌ من الأمتارِ. فجأةً يدوِّي في أذني صوتٌ آمـرٌ: لقـد كُشِـفْتمْ، توقَّفـوا عنـدَ أوَّلِ سـاترٍ يقـيكم نـارَ العـدوِّ وانتظـروا الأوامـرَ. استجبتُ للأوامرِ وتوقَّفتُ، وهكـذا تخيَّلـتُ أنَّ أمـراً مماثلا تلقَّتْه عربـةُ المـلازمِ عقـاب فتوقَّفتْ هي الأخرى.

لقد كنتُ حزينـا لأنَّني لم أصل ميـاهَ البحيرةِ لأفي لخطيبتي بوعـدي، ومـع ذلـكَ كنتُ مأخوذاً بمنظرِ اللوحةِ التي تبدَّتْ أمامي، منظرِ بحيرةٍ طبريَّةَ وقد سقطتْ عليها أشعَّةُ الشَّمسِ عندَ الغروبِ فالتمعَ سطْحُها كأنَّهُ مرآةٌ صقيلةٌ انعكستِ الأشعَّةُ منها فضِّيَّةً وذهبيَّةً برَّاقةً تبهرُ البصرَ.

عدْتُ منْ تخيُّلاتي إلى واقعي على صوتِ رئيسةِ الممرضاتِ هدى وهـي تقولُ: مـلازم صقر، أراكَ تحلمُ وأنْتَ مستيقِظٌ تماماً!

كلَّما خطرتْ هدى أمـامي كنْتُ أشْعرُ بخيطٍ خفـيٍّ يـربطُ بينهـا وبـينَ المـلازم عقـاب، فهـي مثلُه تمامـا، طويلـةُ القامـةِ، مرفوعَـةُ الـرَّأسِ، بهـا أنفَـةٌ وشمـوخٌ، خطوهـا سريعٌ، ليسَ في هيئتها رقَّةٌ ولا في مشيتِها تأوُّدُ الأنثى، غير أنَّ وجههَا متجهّمٌ على الـرُّغمِ من فسحةٍ من جمالٍ تخفي وراءها كلَّ مآسي الكونِ.

قالتْ هدى: حدِّثْني عن حلمكَ.

قلتُ: ليس حلُماً يا آنسةُ، بل قولي كابوساً.

وتابعتُ كابوسي على مسمعٍ من هدى وأنا أكملُ خواطري التي قطعَها حضورُها. كنَّا أنا والملازمُ عقاب نتسابقُ لبلوغِ ضفَّة بحيرةِ طبريَّةَ، فجأةً تـأتي الأوامـرُ بـالتَّوقُّفِ، توقَّفْنـا امتثـالاً للأوامـر، فجـأةً وجـدتُ المـلازمَ عقابـاً ينحـدرُ بعربتـه نحـو ضـفَّةِ البحيرةِ وكأنَّه لم يتلقَّ أمراً بالتَّوقفِ.

الآنَ ينبثِقُ مشهدُ الكابوسِ مجدَّداً منْ ذاكرتي، الملازمُ عقاب المندفعُ بعربتِه نحـو شاطئ بحيرةِ طبريةَ حتى كادتْ عجلاتُ عربتِه تلامسُ مياهَها، كانتِ السَّماءُ تمطرُ رصاصاً وقذائفَ إلاَّ أنَّ الرِّمايات كانَتْ طائشةً وعشوائيَّةً، لم يكترثْ عقابٌ بالنِّيران وقد شاهدتُهُ يترجلُ من عربتِهِ ويخوضُ في مياهِ البحيرةِ وهـو يحدِّقُ بناظريْهِ نحـو ناحيـةِ المجدلِ، خـاضَ في ميـاهِ البحيرةِ قليلاً وكأنَّه يتعَمّدُ بطُهْرِ مياهِها ثمَ أفلَ عائداً إلى عربتِهِ.

فجأةً تتحجَّرُ في موقي عيني هدى دمعتان كبيرتانِ وغادرتني على عجلٍ وبدتْ لـي كأنَّها كتلةٌ ضخمةٌ من الطينِ تتقلَّبُ على الجمر.

غابتْ هدى لبعضِ الوقتِ ثمَّ عادتْ لتسحبَ كرسياً وجلستْ بالقرب مني وهي تنحني نحو رأسي، وتمسحُ دموعَ عينيها بظاهرِ كفِّها وقالتْ: أكملْ فقصَّتُكَ تعنيني. كانت النيران تنهالُ علينا من كلِّ حدَبٍ وصوبٍ، وكنَّا نرى الموتَ يحْدِقُ برفاقِنا بينما نحن لائذون في وكرِنا نترقَّبُ نهايةَ المعمعةِ.

قالتْ هدى بحزنٍ: لقد تركتموهم يواجهون مصيرَهُم وأنتم تشاهدونهم بأمِّ أعيُنِكم دونَ أنْ تحركوا ساكناً.

قلْتُ بانزعاجٍ واضحِ النَّبْرةِ: كأنَّكِ تعيِّرينني على أنَّني ما زلتُ على قيد الحياةِ، ولو لم نحرِّكْ ساكناً لإنقاذِ رفاقِنا لما وجدتني هنا وقد اخترقَ الرَّصاصُ جسدي والتهمَتِ النَّيرانُ نِصْفَ وجهي.

قالتْ هدى ووميضُ سعادةٍ يشعُّ من عينيها: حدِّثْني كيفَ خاضَ عقاب في مياهِ البحيرةِ؟

عندما حاذى بعربتِهِ شاطئَ البحيرةِ ترجلَ وخاضَ في مياهِ البحيرةِ حتى ركبتيه، كنتُ أراهُ بالمنظارِ بشكلٍ جيِّدٍ، وكنتُ أحسدُهُ على ما هو فيه من نعيمٍ وكم تمنَّيتُ لو أنَّني معه لأفي لخطيبتي بوعدي لها في أن أبللَ شالها بماءِ البحيرةِ، خاضَ عقابٌ في مياهِ البحيرةِ ذهاباً وإياباً عدَّةَ مراتٍ وعيناهُ مسمَّرتانِ على الضِّفَّةِ المقابلةِ ثُمَّ غابَ تحتَ مياهِ البحيرةِ وشربَ من مياهِها، وكأنَّي به يستعذبُ المكوثَ هناكَ غيرَ أنَّ النيرانَ الكثيفةَ جعلتْهُ يأفلُ عائداً إلى عربتِهِ.

لكنَّ البحيرةَ التي أحبَّها عقابُ إلى حدِّ العشقِ، والتي خاطرَ بحياتِه من أجلِ ملامستِها خائنْةُ دونَ أنْ تدري، فبينما كانَ عقاب يغادرُ مياهَ البحيرةِ والحزنُ يعتصرُ قلبَهُ لفراقِها عكستْ مرآتُها الصقيلةُ قامتَهُ الفارعةَ كأنَّها وحشٌ جبَّارُ يتمشَّى على ضفافِ البحيرةِ مما لفتَ نظرَ العدوِّ نحوه فانهالتْ عليه كلُّ أنواعِ الرماياتِ، استطاعَ عقاب الوصولَ إلى العربةِ بخفَّةٍ ورشاقةٍ، استدارتِ العربةُ لتعودَ إلى المكانِ الآمنِ الذي كانَتْ فيه، غير أنَّ قذيفةً جهنَّميَّةً التهمتِ العربةَ وأحالتْها إلى كتْلةٍ منَ الحديدِ المنصهرِ.

أسرعنا أنا ورفاقي لنجدة الناجينَ ولكنَّ العربةَ قد تفحَّمتْ وتحولتْ إلى كتلةٍ من الحديدِ تماهتْ مع الصُّخورِ هناكَ، وبينما كنَّا ندور حولَ العربةِ استهْدفَتْنا القذائفُ فاستشهدَ اثنان من رفاقنا وأصِبْتُ أنا بإصاباتٍ بليغةٍ كما ترين .

قالت هدى وهي ترسمُ على شفتيها طيفَ ابتسامةٍ: الحمدُ للّه، لقد حققَ غازي، أقصدُ منْ سمَّيتَهُ عقاباً وهذا هو اسمه الحركيّ حلُمَهُ كما وعدَ في أنْ يصلَ ضفَّةَ

البحيرةِ وأنْ يخوضَ في مياهِها حتى ركبتيه، وربَّما كادَ أنْ يخوضَ في مياهِها نحو الضِّفَّةِ الأخرى حيثُ بيتُ أهلِنا في ناحيةِ المجدلِ.

تفاجأتُ وذُهلْتُ وانعقدَ لِساني كيفَ أنَّني أروي قصةَ بطولةِ واستشهادِ عقاب إلى شقيقته دونَ أنْ أعلمَ فقلتُ وأنا أغضُّ الطرفَ بعيداً: مصادفةٌ ولا في الخيالِ في أنْ أختارك من بينِ كلِّ هذه الحشودِ لأروي لك قصَّة استشهادِ أخيكِ البطلِ عقاب، ومع ذلك فأنا أحسُدُكِ على تماسكِكِ واتزانكِ ورباطةِ جأشكِ وكأنَّني أحدثُك عنْ شخصٍ ما لا تعرفينه ولا يعني لك شيئاً من بعيدٍ أو من قريبٍ.

قالت هدى: لا تستغرب يا سيادةَ الملازمِ في أنْ تحدِّثني عن استشهادِ شقيقي وأتصرَّفَ كأنَّ الأمْرَ لا يعنيني، فكما يقولون: لقد تعوَّدَ هذا الخدُّ على اللطمِ، فنحن ومنذُ أكثرَ من ثلاثينَ عاماً نعاني القتْلَ والتَّهجيرَ والتخوينَ والاعتقالَ، الآنَ فقط أحسُّ برائحةِ الانتصار التي هبَّتْ علينا نسائمُها من تشرين، الحمدُ للّهِ الذي أحيانا لنرى هذا النّصرَ العظيم، وهذه الفرحةَ التي عمَّت أرجاءَ الوطنِ العربي بعدَ الانتصار المدوي في سورية ومصر وبمشاركةٍ منَ الجيوشِ العربيةِ.

توقّفتْ هدى عن الكلامِ فجْأةً وهبّتْ واقفةً لتقولَ: انتظرني قليلاً، سأعودُ بعدَ قليلٍ.

غابَتْ هدى لبعضِ الوقتِ لتعودَ وهي تدفعُ أمامَها كرسيّاً متحركاً يعتليه شخصٌ ملفوفٌ بالشّاشِ من أعلى رأسِه حتى أخمصِ قدميه، وكأنّي به يتوثّبُ للنّهوض يريدُ معانقتي، قالَتْ هدى: مفاجأتي لكَ، الملازمُ غازي الذي سمّيتَه عقاباً بلحمِه وشحمِه أمامَ ناظريك حيّا يرزق، لم أصدّق عينيّ حتى التفّ الشاشُ بالشاش، وكان عناقاً طويلاً ولذيذاً نسيتُ معه آلامي وجراحاتي والعمليّاتِ الجراحيّةَ التي أجريَتْ لي، وعلمْتُ من عقاب أنّه استطاعَ التّسللَ من عربته عندَ استهدافِها، وأصيبَ بجروحٍ عميقةٍ وحروقٍ بليغةٍ، غيرَ أنَّ النيرانَ الصّديقةَ استطاعت إسكاتَ النيرانِ المعاديةِ ريثما أُخْلِيَ من الموقع.

وجدانيات

وعاد نزار في تشرين

أ. سمر أحمد تغلبي

وعاد نزار في تشرين

أ. سمر أحمد تغلبي

أقبِلْ نـزارُ، لماذا الصّمتُ والوجـلُ؟ هـذي دمشـقُ، إليهـا الشّـوق يرتحـلُ
تلـكَ الـتي كنـتَ قـد أرهقْتَهـا قُـبَلاً تلـك الـتي ارتَعَـدَتْ مِـنْ شـوقِها القبـلُ
تلـك الـتي فتَّحـتْ في البُعْـدِ أذرُعَهـا كـي يرتوي الشَّوقُ من نجواكَ إذ تصِلُ
مـا لـي أراكَ عصِـيَّ الوَجـدِ متَّئِـداً مـا ذاك عهـدُكَ عنـدَ الشّـامِ تنشـغِلُ
أيـنَ الجنـونُ؟ وأيـنَ الطِّفـلُ في شـغَفٍ يسـعى لحضْـنٍ إليـهِ الـرّوحُ تنتقِـلُ
بل أيـنَ سَعْيُكَ نحـوَ العشـقِ مكـتملاً مـن قاسـيونَ يُـدَوّي، يرجـفُ الجَبَـلُ
هـلْ جئتَنـا تُرهِـقُ الأرواحَ في عَتَـبٍ؟ أمْ جئتَ ترقـبُ شـوقاً كيـفَ لا يَصِلُ؟
مـاذا وُقوفُـكَ خلـفَ الشّـامِ في دَعَـةٍ؟ قـلْ مـا الـذي في رحـاب الـروحِ يعتمـلُ

***

هـذا نـزارُ يهُـزُّ الـرَّأسَ في جَلَـفٍ يقـولُ في وَلَـهٍ، للحـرفِ يَرتَجِـلُ:
مـا هـذه الشّـام، مـا هـذا النّـواحُ بهـا؟ عهـدي بتشـرينَ بـالأفراحِ يشـتعلُ
أيـنَ الزّغاريـدُ؟ أيـنَ الوجـدُ في مُقَـلٍ في كُحْلِها المجدُ يشدو الحبَّ، والأملُ

تشـــرينُ جـــاءَ بتشـــرينٍ فصـــارَ بهـــا ... في كـلِّ منعطـفٍ ذكـرى، بهـا ثَمِـلُ

هـلْ مـرَّ تشـرينُ مـن ميـدانها ألِقـاً؟ ... أم أنَّ ثـــانيَ تشـــرينينِ يعْتَـــزِلُ؟

ذاكَ الـذي كـان للآمـالِ ضـوْءَ غَـدٍ ... وللجـــراحِ رحيـــقٌ منـــهُ تنْـــدَمِلُ

أرنـو إلى الشـام، قـد ضـلَّتْ مباهجُهـا ... واغتـالَ فيهـا نـدى تشـرينَ مُنفَعِـلُ

عـودوا بحـبٍّ إلى أحلامكـم زمـراً ... كي يشرقَ المجدُ في تشرين، والغزلُ

إشعاعات تشرينية

قصص الحرب في مجموعة

(المدفع الخامس)

للقاص محمد وليد الحافظ

أ. عوض سعود عوض

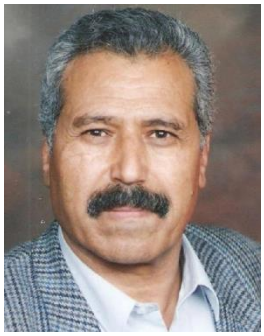

قصص الحرب في مجموعة (المدفع الخامس) للقاص محمد وليد الحافظ

أ. عوض سعود عوض

تعتمد قصص مجموعة المدفع الخامس على الأحداث، القاص خبر الحرب وشارك فيها، فهو يكتب عن أمر عايشه، وعن شخصيات مقربة منه، معتمداً على السرد والتداعيات وعلى دمج الزمن الماضي مع الحاضر، مقتربة قصصه من القصص التقليدية إلى حد ما، محاولاً إظهار ما هو اجتماعي وحياتي مع الوطني، كما تبدو فنية بعض القصص بنهاياتها، ولا ينسى دور المرأة المحرضة على الصمود في قصة (الرصاصة تصيب الجبين).

محمد وليد الحافظ من الكتاب القليلين الذين كتبوا بموهبة ودراية عن حرب تشرين، وهذا يعود إلى أنه شهد هذه الحرب، إذ دعي إلى الاحتياط ومن خلال مشاركته ومشاهداته وتصوراته استطاع أن يبدع مجموعة سماها (المدفع الخامس) إكراما لعبد الرحمن ولشجاعته، إذ كان لفعله قوة مدفع.

لوحة الغلاف عادية مع أنها تحتوي على ثلاثة ألوان، وأن عناوين القصص عادية، باستثناء (تواقيع على عريضة الانتماء إلى الوطن) على الرغم من طوله، إذ يحتوي على ست كلمات، وهو لهذا يعتبر من العناوين الطويلة.

حاول القاص أن لا يتبع طريقة واحدة في القص، مع أن قصصه هي قصص حدث، إلا أنه لا يهمل الشخصيات، بل يركز عليها، ويعطيها حقها من التوضيح والإنارة، فتداخل الحدث والشخصيات أشبه ما يكون بالحياكة أو المغزل والعكس صحيح .

في هذه المجموعة يتم تحويل التجارب والواقع إلى إبداع وفن، نقرأ الأحداث والشخصيات ونلم بالواقع وظروف الحرب ومجرياتها، إن تدخل الكاتب في مجرى حوادثه هو تدخل بسيط تستوجبه ضرورات الفن. مجموعة قصصه (المدفع الخامس) حظيت

باهتمام واسع لكونها تتحدث عن حرب وطنية ضد عدو محتل وقت صدورها. فيها تظهر ذات الكاتب وذات العديد من الشخصيات، وبما أن لحظات الحرب رهيبة، تحتمل الموت في أية لحظة، فإن الهروب إلى الماضي من خلال استحضاره شكل في القصص نسبة لا بأس بها، فعلى سبيل المثال في القصة الأولى تأتيه الأحداث أشبه بمنام وهلوسات، يصطنع فيها معركة يخرجها ويقودها، هي غير المعركة الحقيقية، وربما رداً عليها، وعلى بعض الأخطاء والإحباطات التي حصلت، إذ يختتم المنام بهزيمة ساحقة للعدو، في هذا الوقت يعود بنا إلى الواقع، فيحرر ذراعه المتشنجة من أسر زوجته، يتقلب إلى جنبه الآخر وهي إشارات كافية تدل على الزمن الحاضر، وما سيلاقيه في الغد من طلبته وزملائه: (غداً سيحاصره زملاؤه في المدرسة، وفي ذهن كلٍّ منهم عشرات الأسئلة عن الحرب، ستتفرس عيون طلابه وجهه، باحثة دون جدوى عن شظايا المعركة.) صفحة 5

في قصصه شكل من أشكال التداعيات على الرغم من اقتراب قصصه من القصة التقليدية، وهذا أدى إلى دمج الحاضر مع الماضي في العديد منها، مثالنا هنا من المقطع الثالث من القصة الأولى، فها هو يتسلق الباص، وينزوي مخبئاً دفتر تحضيره تحت كنزته، يتشاغل بمراقبة الصاعدين والنازلين، ثم يستجمع خيوط حكاية أمتع من سابقتها.

وفي قصة (المفتاح) حين يعود إلى بيته، أو غرفته المستأجرة في دمشق، ينسي المفتاح، يصف فيها حياة العسكرية، ويخلط الحاضر مع الماضي: (ساعة أوعزوا إليَّ بالتقدم، كانت قطتها ووصيتها الذكرى الحلوة الوحيدة في حياتي، لا أم أعيها ولا أب أشتاق إليه، ولا.. لم يكن أي شيء حلو، أمامي خندق قبيح يغور بك إلى الهاوية ثم يرفعك إلى السماء، يلتف كتنين ينفث الموت.) صفحة 95 .

المؤلف لا يتبع طريقة واحدة في القص، فلكل قصة عالمها الخاص، من ذلك هناك قصتان اعتمدتا على التقطيع هي الأولى (تواقيع على عريضة في الانتماء إلى الوطن) والأخيرة وهي (البخيل) أما قصة المدفع الخامس ففيها تقسيمات، خصت الأيام التالية 24 و 25 و 26 حزيران وهي بهذا تقترب إلى حد ما من التقطيع، الذي يسهل عملية القص أو الحكاية أو الانتقال إلى ما يريد.

في القصة الأولى يتكئ الكاتب على شخصيته ليتحدث عن الحرب والتعليم، فها هو في المقطع الخامس يستقل باصين إلى مدرسته، وفي المقطع السادس يصل ويدخل الصف، لتبدأ مرحلة جديدة من حياته، وليبدأ الدرس وما زال ذهنه مشتتاً ما بين الحرب الماضية، والواقع الذي هو التدريس، هناك إضافة إلى شخصيته في القصة الأولى عدة شخصيات هي جابر والملازم فياض وحسان. إن تعدد الشخصيات في القصص السمة البارزة، نأخذ

مثلاً من القصة الثانية التي فيها الشخصيات التالية: الرقيب عبد القادر، أحد الرجال الذين تستطيع الاعتماد عليهم، هو رجل المهمات الصعبة، يستطيع مواجهة أية مشكلة، إن كانت داخل السرية أو خارجها، كاستعصاء مدفع أو أية مهمة، وحين يطول ليل الصيف على قصره، تجده عند باب الخيمة، وأمامه كأس متة أو أبريق شاي وعلبة دخان "حل". والملازم علي قائد الدبابة إلى اليسار والخلف من البرج، هو مهندس زراعي قصير القامة جدي، يتقن مهنة الدبابة ومستلزماتها، وشكري حسو رامي دبابة، يتقن استخدام سلاحه يتصف بالصدق الفطري، تعامله مع رفاقه إنساني، إلا أنه يغضب بشكل مدمر لكنه سرعان ما يهدأ. وبسام القادري عسكري مجند مكانه على يمين الملازم، لا يتذمر، دراسياً وصل إلى الصف التاسع، تقدم لنيل الشهادة الإعدادية أربع مرات ولم ينلها. والعسكري حسين الحميدي متطوع يعد الفصيلة ملكاً له، حلو المعاشرة، أما إذا تمادى أحدهم في المزاح معه انقلب إلى نمر هائج، لكن ثورته تنحسر فجأة ومع ذلك هو انضباطي مع رؤسائه.

يلاحظ أن طريقة التعريف بالشخصيات تأتي من خلال سياق النص، وفي هذا المجال نستطيع أن نحكم على بعض القصص، بأنها قصص تتحدث عن شخصية ومثالنا على ذلك :

- قصة البخيل التي تتحدث عن شخصية الحجَّار.
- قصة المدفع الخامس التي تخص جانباً كبيراً منها لشخصية الرقيب عبد الرحمن.
- قصة الإجازة التي تتحدث عن شخصية صالح الجلعوط.
- قصة عند الغروب التي تتحدث عن أب يسأل عن ابنه محمود المنصور.

في القصص يدمج الكاتب بين ما هو اجتماعي وحياتي ووطني، كما في قصة (البخيل) التي يتحدث فيها عن شخصية تنتقل من حرفة إلى حرفة، هذا الواقع الاجتماعي يربطه بحياته، بالحرب والنزوح، وفي قصة (المفتاح) وصف لحياة امرأة استأجر عندها غرفة، ووصايا صاحبة البيت، ويوم استقبالها عاداتها وتقاليدها، وفي القصة الأولى دمج ووصف للحياة المدنية وللحياة العسكرية من خلال شخصية الكاتب ذاته .

تبدو فنية العديد من القصص في نهاياتها، كما في نهاية قصة (عند الغروب) إذ بدت نهاية مفتوحة وجميلة، ففي حين يتحدث الرقيب، فإن قلب الأب الكهل ينفطر، يتصور ابنه في أية حادثة يسمعها: (تداعت ساقا العجوز، وتداخلت حدود التلال أمامه، وسأل بصوت يكاد لا يسمع: أما يزال الطريق طويلاً يا بني؟ لم يجب الرقيب، وغاب الاثنان في الأفق البعيد، وفي المساء بدأ قمر أحمر يبدد سواد الليل) صفحة 50.

كما تبدو نهاية قصة (المدفع الخامس) ضمن هذا السياق، حين يُسأل عن عبد الرحمن الملقب بالمدفع الخامس، الذي استشهد لتكون نهاية القصة كالتالي: (تبادلنا نظرات واجمة، أدرك كلٌّ منا ما في نفس الآخر، فقد صهرتنا نار الأيام الثلاثة في نفس واحدة، لم يطل قلقنا، ارتسم عبد الرحمن أمام عيوننا يعانق الشمس القانية، التي تغيب وراء التلال) صفحة 83 .

وفي نهاية قصة (المفتاح) مفاجأة ولقطة جميلة إذ تقبله جارته صاحبة البيت، وتكشف عن وجهها على الرغم من تقاليدها المحافظة، وتنطبع شفتان حنونتان على جبينين أنا الذي لا يتذكر لثم أم ولا ذاق طعم الشفتين، ولا حرارة زوجة أو حبيبة، أنا في حلم أم في علم؟ ما تجرأت أن أسألها وما وعيت إلى الآن ما جرى) ص 101. يتناول القاص الحرب وجزئياتها من زاوية العارف بأمورها وأمور الدبابة، فهذا حديثه عن إمكانية نجاة السائق على الرغم من إصابة دبابته، لاحظ ذلك في الصفحة 23 .

أما دور المرأة فيكاد يكون معدوماً، إلا في ثلاث قصص، هي (الإجازة) التي تتحدث عن صالح جلعوط، الذي وعده الضابط بإجازة لينهي تفاصيل خطوبة وزواج ابنة عمه، لكن الحرب لم تهمله فتحدث اشتباكات ويستشهد. وفي قصة (الرصاصة تصيب الجبين) حيث يتم الانسحاب من المعركة وتصدم دبابة عربة وتقلب ما فيها من متاع وأطفال، وهنا يسأل فتغمغم العجوز بكلمات نصف مفهومة، لا تهتم يا ولدي لم يحدث مكروه، تابع طريقك، كان لهذه الكلمات فعلها، فيعود غرباً ليتحصن بدبابته في إحدى الحفر، وفي قصة (المفتاح) رصد لحياة امرأة تعيش وحيدة، تتخلى عن حرصها وعاداتها، وتستقبل المقاتل المستأجر عندها أحسن استقبال، ونحن بهذه الإشارة السريعة نستطيع أن نقول بأن دور المرأة كان إيجابياً .

مجموعة قصص (المدفع الخامس) للقاص محمد وليد الحافظ محطة هامة في حياته الأدبية، استطاع من خلالها أن يجسد البطولات والهزائم، الأفراح والأتراح في حرب تشرين. من غلاف المجموعة نقرأ: (قصص يتحدث المؤلف فيها عن بطولات مقاتلينا في معارك التحرير، ومحبة المقاتل العربي لسلاحه والتحامه به، والدفاع عن أرض الوطن وعن السلاح الأثير، وحتى قطرة الدم الأخيرة، وإلى جانب تصويره لعوالم مختلفة من حياة المقاتلين داخل الثكنات وفي البيوت وضمن ظروف الحياة. والمؤلف متمكن من أدواته، ويكتب من خلال تجارب عاشها وعاناها، وعرف أبطالها ووقائعها عن كثب.

المدفع الخامس - قصص محمد وليد الحافظ - اتحاد الكتاب العرب دمشق 1989 - تضمنت المجموعة ثماني قصص في 125 صفحة من القطع المتوسط .

مسك الختام

وماذا بعد

أ. فلك حصرية

وماذا بعد

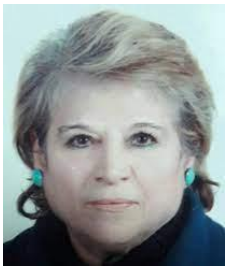

أ. فلك حصرية

دهشة كبيرة، وحيرة لا مرافئ لها، وتراكم هاطل من علامات الاستفهام، وإشارات التعجب، وحروف بدت وقد تاهت عن سطورها وانطلقت بسرعة حاوٍ محترف، أتقن لعبة السحر، وتخرج في مدرسة الخفّة، والظل، وإتقان رموز الخداع البصري، والقفز فوق الخطوط الوهمية..

تعجَّب بإثارة ضجيج تساؤلات حارقة في داخله، ورسم دوائر متداخلة متعانقة، متجانسة النبض، ومتماوجة الألوان، فيما يقودها اللون الأبيض، كمايسترو، راح يخط السلم الروحي، عبر سلم أخفى درجاته الأخيرة، في عمق السحاب الأبيض المتدرج الإشعاعات في وسط ملكوتي، بجلاله ألف معنى، ولسموه ألف ألف خط وشكل، نظم وانتظام، تحفّة إيقاعات تتردد في الأُفق للمرة الأُولى، وتمضي به عقارب الوقت، باتجاه تشكّل عالم، فيه الحق يتبرعم، والروح تتوالد فيها دنيا من الإشراق لا عتمة فيها، ولا حزن، لا دمعة فيها ولا قهر... دنيا هي الحقيقة الخالدة والعالم الباقي المؤبّد، المتجذّر في صحوة النفس، وقد كانت في غفلة، المحفور في قلب الشموخ، وقد انبعث وبعث، شرارة لحياة بلا نهاية، وحال بلا زوال...

فاجأه المنظر، واختطفت لُبَّه الحالة الطارئة، كان من المفروض أن تعيد السماء القفازات البيضاء والقلانس ذات الريش المزينة بالنسر، وقد أراح جناحيه، وترك لعينيه القويتين بعيدتي مدى الرؤية، والجارحتين في لظاهما الأبدي، الخارقتان، الحارقتان، القاتلتان، النفاذتان نحو أعمق العمق، وقلب القلب، ونقطة المقتل بلا هوادة...

غاب المشهد في لحظات سرقت الحدث، وتركت للبوح سُبل التعبير عما يختلج الصدور، ويثلجها بماء الكوثر، وهطل ربوة مباركة... كثرت الأسئلة، وطفحت، وفاضت، وتعجّلت في دهشتها، وقد غابت رسائل الشكر إلى الله، وحمل الفرحة عبر

رسائلها الملتفحة بقفازات شباب النخبة في الكلية الحربية، وقلانسهم التي أعلنت تحيزها لمن سبقها وأشهرت تحديها أن لن تعود إلا ووهج الفرحة مساكب ضوء وضياء تختصر التاريخ، وتبعث المستقبل في إشارتي "6 – 7" تشرين الأول 2023.

لقد كان الزمن في تألق لم نشعر بمداه منذ سنين طويلة وأقبلت الفرحة من قلب الحزن، وتسامت هتافات النصر وهي تترابط وتربط بين أبطال الكلية الحربية "النخبة" وأبطال المقاومة الفلسطينية السامية ها هو التاريخ يخطّ، وبيده مصائر المنطقة العربية وها هم أحفاد الكبير البطل ابن سورية العظيم، الشيخ عز الدين القسام، معلناً النفير العام وملوحاً لأبطال غزة وسورية: أن آن لكم أيها العرب المتخاذلون أن تصحوا وتهبّوا من ذلكم، صحوة، وهبة، وبعثة رجل واحد، أما آن لصلاح الدين أن يحرر القدس من جديد، وللمعتصم أن يلبي صيحة "وامعتصماه" أما آن أن نكنس المطبعين نحو مزبلة التاريخ، ونلقي بهم قمامة في المستنقعات، والمياه الآثمة.

أما آن للحق أن ينتصر، وقد تهافتت دول العالم الاستعمارية واتّحدت في هجمتها الإجرامية، الوحشية، العنصرية، الصهيونية.

أما تسمعون ـ يا أحرار العالم ـ أصوات السيوف في غمودها تريد الانعتاق من سجنها، والالتحام تلبية لدورها، واستجابة لوظيفتها ومهمتها.

الله أكبر... يا قدسنا، ويا شرفنا العربي، الله أكبر يا تاريخاً إن لم ننصفه، فغداً سنخجل منه، وإن لم نلبي استغاثته فستدوسنا أقدام الغزاة، الحثالة، الساقطين...